

الحب

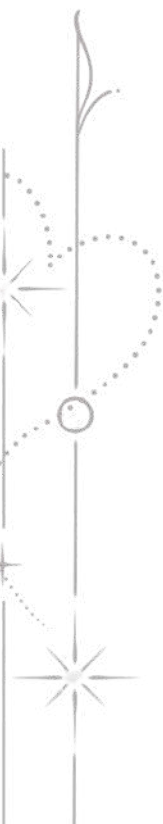
العلاقة بين الحب والطاعة

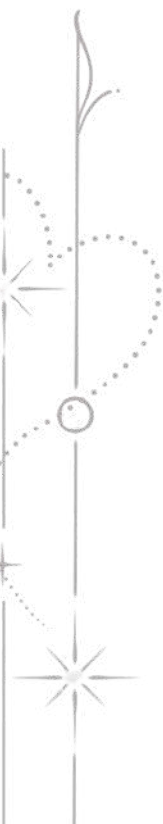
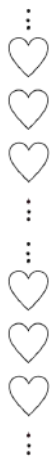
الشيخ طلال الجمري

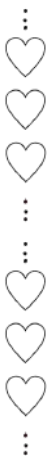


العلاقة بين الحب والطاعة

الشيخ طلال الجمري

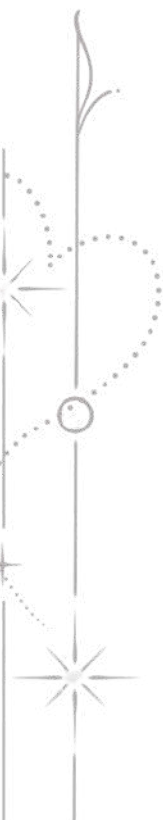


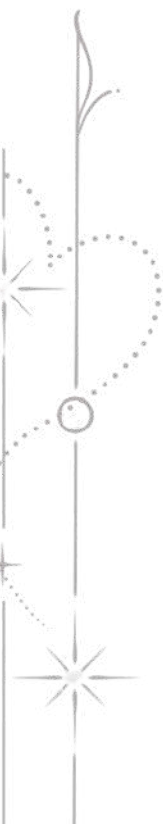
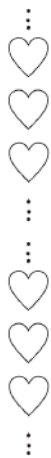


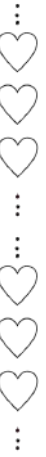


سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ⑦







إهداء

إلى سيدي أمير المؤمنين عليه السلام، ويعسوب الدين، وقائد العرّ
المحجّلين، إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث ينتهي البيان،
ويتبدّى سرّ الله في الإنسان...

إليك يا عليّ، لا بوصفك اسمًا في سجلّ التاريخ، ولا صفحة تُقرأ في
كتب السيرة، بل بوصفك الحقيقة التي بها يُعرف الحقّ، والمعيّار الذي
عليه تُوزن القلوب، والنور الذي به اهتدت الأرواح في مسيرها إلى الله.

إليك، يا من لم يكن حبّه خيارًا عاطفيًا، بل قدرًا إلهيًا، كُتب في لوح
الفطرة قبل أن تُخلق المشاعر، وغُرس في عمق الوجدان قبل أن تُدرك
العقول معاني الولاء...

يا من صار حبّه حدًّا فاصلاً بين نجاةٍ وهلاك، وبين إيمانٍ ونفاق، حتى
قيل فيك ما قيل، وشهدت لك السماء قبل الأرض، وأقرّت لك القلوب
قبل الألسن.



يا عليّ...

أيّ حرفٍ يستطيع أن يقترب من مقامك دون أن ينكسر؟
وأيّ بيانٍ يجرؤ أن يصفك دون أن يعجز؟

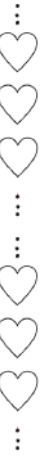
وأنت الذي إذا ذُكرت، انحنى البيان هيبَةً، وإذا حضرت، سكنت الكلمات
خشوعاً، لأنها تعلم أنها تقف أمام بحرٍ لا تُدرك له شواطئ، ونورٍ لا يُحدّد
بحدود.

يا سرّ الحبّ حين يكون لله، ويا تجلّيّ العشق حين يتحرّر من أنانيّته
ليصير عبوديّةً خالصة، يا من صار حبّك سلماً إلى الله، لا يُرتقى إلا به،
ولا يُعرف الطريق إلا من خلاله...

فما الحبّ في مدرستك ميلٍ قلبٍ فحسب، بل هو انقياد روح، وتسليم
عقل، وذوبان ذات في سبيل الحقّ الذي تمثّله.

يا أمير المؤمنين، لقد تعلّمت القلوب من سيرتك أنّ النجاة ليست ادّعاءً،
بل موقف، وليست شعاراً، بل التزام...

وتعلّمت أنّ حبّك ليس كلمةً تُقال، بل طريقٌ يُسلك، وجهادٌ يُعاش، وثباتٌ
على الحقّ حين تنزل الأقدام، وحين يُصبح الوفاء امتحاناً لا يثبت فيه إلا
من ارتبط بك ارتباط المصير لا ارتباط العاطفة العابرة.



يا عليّ...

أنت السفينة التي لا تغرق، وإن تلاطمت أمواج الفتن، وأنت الباب الذي لا يُغلق، وإن ضاقت السبل، وأنت الحبل الذي من تمسّك به نجا، ومن أعرض عنه تاه في متاهات الضياع...

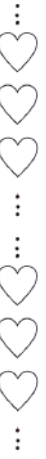
فكيف لا يكون حبّك نجاة، وأنت باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، ووارث سره، وحامل لوائه، وامتداد نوره في الأرض؟

يا قبلة العاشقين، يا من إذا ضلّت القلوب وجدت فيك الدليل، وإذا اشتدّ الظلام رأت فيك الفجر، يا من صار ذكرك طمأنينة، وولايتك سكينه، والانتساب إليك شرفاً لا يعلوه شرف...

هذا الكتاب، يا مولاي، ليس إلا محاولةً خجولةً للوقوف على عتبة معنى الحبّ العظيم الذي تجلّى فيك وفي أنبائك المعصومين عليهم السلام، ليس إلا قطراتٍ صغيرة من بحرٍ لا يُحَدّ، وليس إلا نداء قلبٍ يبحث عن النجاة في زمنٍ كثرت فيه السبل وتفرّقت فيه الطرق...

فلم يجد أصدق من حبّك طريقاً، ولا أوضح من ولايتك منهجاً، ولا أأمن من بابك ملاذاً.





إنَّه كتابٌ كُتِبَ بروحٍ تعلَّمتِ أنَّكَ المعيار، وأنَّ الحبَّ الذي لا يمرَّ عبركَ
يبقى ناقصًا، وأنَّ النجاة التي لا تُكتب في سجلِّ ولايتك تبقى موهومة،
مهما تزيَّنت بالشعارات.

إليك يا عليّ، يا ميزان الأعمال، ويا قسيم الجنَّة والنار، يا من كان حبّه
أمانًا في الدنيا، وذخرًا في الآخرة، أرفع هذا الإهداء، وأنا أعلم أنّه لا يفي،
ولا يبلغ، ولا يقترب...

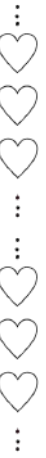
لكنّه أرجوا أن يُقبل، لا بحروفه، بل بنيّته، ولا ببيانه، بل بولائه.

فاجعل . يا مولاي . هذا الحرف في ظلِّ رحمتك، واكتب لصاحبه نصيًّا
من ذلك الحبِّ الذي لا يخذل أهله، واجعل خاتمته على ولايتك، وحشره
في زمرك، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وقلبه
معلّق بحبِّ عليّ.

إليك يا أمير المؤمنين هذا الإهداء، وما فيه، وما عجز عنه، وكلّي أملٌ أن
أكون في سجلِّ المحبِّين، وفي ديوان من نجا بحبِّك، وفاز بولائك، وكان
معك حيث تكون.

أبو يقين نور الزهراء

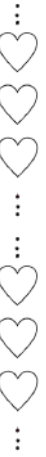




مقدمة كتاب

ليس الحب في منطق أهل البيت (عليهم السلام) عاطفة عابرة، ولا انفعالاً وجدانياً يُستهلك في لحظة، بل هو حقيقة وجودية، وجوهر تكويني يتغلغل في بنية الإيمان، حتى يغدو الدين . في أعرق تعريفاته . حباً خالصاً يتجلى في الطاعة، ويُختبر في السلوك، ويُترجم في المواقف. ومن هنا جاءت الكلمة المضيئة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب؟!»، لتختصر مساراً عقدياً وتربوياً كاملاً، لا يفهم الدين بدونه، ولا يُقام إلا به.

إن هذا الكتاب ينطلق من هذه القاعدة الجوهرية: أن الحب ليس فرعاً من فروع الدين، بل هو أصله الذي تتفرع عنه سائر القيم. فالحب هو الذي يُنشئ الإيمان، ويمنحه روحه، ويُخرجه من الجمود إلى الحركة، ومن الادعاء إلى الصدق. وما الطاعة إلا صورة الحب حين يتجسد، وما المعصية إلا دليل خلل فيه أو انحراف عن وجهته. ولهذا كان القرآن الكريم يجعل معيار الحب الإلهي هو الاتباع العملي، كما في قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، فربط بين دعوى القلب وسلوك الجوارح، وجعل الطاعة برهان الحب، لا مجرد دعوى لسان.



وفي مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، لا يُفهم الحب بوصفه حالة وجدانية معزولة، بل هو وعي ومعرفة والتزام. هو معرفة بالله تُثمر خشية، ومحبة لرسوله تُثمر اتباعاً، وولاءً لأوليائه يُثمر نصرَةً وانتماءً. ومن هنا، فإن الحب عندهم صلوات الله وسلامه عليهم ليس حالة سكون، بل حركة دائمة نحو الكمال، وارتقاء مستمر في مدارج القرب الإلهي.

إنّ هذا الكتاب محاولة للكشف عن أبعاد هذا المفهوم كما تجلّى في كلماتهم وسيرتهم عليهم السلام، من خلال تتبع مسارات الحب في العقيدة والسلوك. فيبدأ ببيان أن الحب هو أصل الإيمان وميزانه، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله»، ثم ينتقل إلى تجليات هذا الحب في العلاقة بالله ورسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم، حيث يصبح الحب معياراً للإيمان وميزاناً للصدق.

ثم يتوسع في استجلاء أثر الحب في بناء المجتمع المؤمن، وكيف يتحول إلى رابطة أخوية تُسقط الفوارق، وتؤسس لمجتمع قائم على الإيثار والتراحم، كما تتجلى في وصايا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وسيرة أصحابه، وأصحاب الحسين (عليه السلام) الذين جسدوا الحب في أسمى صوره.



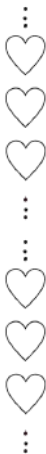


ولا يغفل الكتاب عن مواجهة التحدي المقابل، وهو الكراهية والضغينة، فيعرض نماذج من مواقف الأئمة (عليهم السلام) الذين واجهوا الإساءة بالمحبة، والعداء بالحلم، كما في سيرة الإمام الحسن بن علي عليها السلام، وسيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام، ليؤكد أن الحب الحقيقي لا يُهزم أمام الأذى، بل يزداد صفاءً ونقاءً.

ويمتد البحث ليشمل الحب في أفقه الإنساني العام، حيث لا يقتصر على دائرة المؤمنين، بل يتسع ليشمل الخلق كافة، اقتداءً بسيرة النبي صلى الله عليه وآله، الذي كان رحمةً للعالمين، وبنهج أهل بيته عليهم السلام الذين جعلوا من الإحسان قيمةً تتجاوز حدود الانتماء.

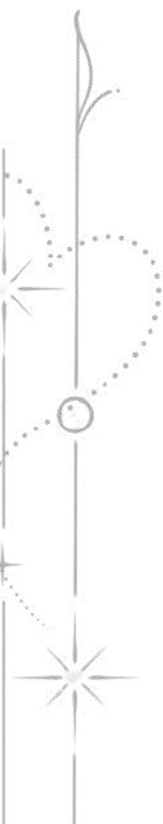
غير أن الطريق إلى هذا الحب ليس خالياً من العوائق؛ إذ ثمة حب زائف، يقوم على المصلحة أو الهوى، حذر منه الأئمة (عليهم السلام)، لأنه يُفرغ الدين من مضمونه، ويحوّل العلاقة إلى تبعية عمياء لا وعي فيها ولا التزام. ومن هنا، كان لا بد من تربية القلب، وصقله، وتهذيبه، ليكون وعاءً صالحاً لهذا الحب الصادق، عبر الذكر والدعاء وخدمة الخلق، حتى يبلغ الإنسان مرتبة يحب فيها لله، ويعمل لله، ويعيش لله.

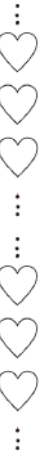




إن هذا الكتاب ليس تنظيراً لمفهوم مجرد، بل هو دعوة لإعادة بناء العلاقة مع الدين من الداخل، من القلب تحديداً؛ لأن كل إصلاح لا يبدأ من القلب، يبقى ناقصاً، وكل طاعة لا يسندها حب، سرعان ما تذبل أو تنحرف.

فالحب... هو البداية، وهو الطريق، وهو الغاية.



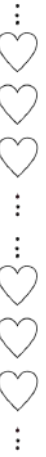


تمهيد

قال سيدنا الإمام الصادق عليه السلام: هل الدين إلا الحب؟! إن الله عز وجل يقول: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.

هنا يختصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام الدين كله في كلمة واحدة، فيقول: «هل الدين إلا الحب؟!»، فإنما يفتح لنا باباً لفهم مختلف للدين، فهم يتجاوز حدود التعريفات الشكلية، وينفذ إلى جوهر العلاقة التي أرادها الله لعباده. إن هذا الاستفهام ليس بحثاً عن جواب، بل هو هدم لكل تصور قاصر يجعل الدين مجرد طقوس تُؤدى، أو أوامر تُنفذ بلا روح، ليقيم بدل ذلك تصورًا حيًّا يجعل الحب أصل الدين ومادته وروحه.

ومن هنا يتكامل هذا المعنى مع البيان القرآني العميق في قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، حيث لا يُترك الحب دعوى في القلب، بل يُربط بالاتباع، ويُختبر في الطاعة. فالحب الصادق لا يبقى حبيس الشعور، بل يتحول إلى التزام، ولا يقف عند حدود الوجدان، بل يمتد ليصوغ السلوك، ويهذب المواقف، ويبعد ترتيب أولويات الإنسان في حياته كلها.

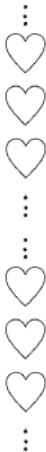


وعلى هذا الأساس، يغدو الدين حركة حبٍ صاعدة من العبد إلى ربه، تتجلى في الامتثال لأمره، وفي السير على نهج رسوله وأوليائه صلوات الله عليهم، ثم تعود هذه الحركة فيضًا إلهيًا من المحبة والرضا والقبول. إنها علاقة متبادلة، يبدأها العبد بالصدق، ويكملها الله باللطف، فيكون الحب فيها طريقًا وغايةً في آنٍ واحد.

ومن هذا المدخل، محاولة ليتشكل هذا الكتاب ليقرأ الدين قراءة قلبية واعية، تستنطق نصوصه وسير أعلامه من زاوية الحب بوصفه المعيار الأعلى لكل انتماء، والميزان الدقيق لكل طاعة. فليس كل من أطاع أحب، ولكن كل من أحب أطاع؛ لأن الطاعة حين تنبع من الحب، تتحول من عبءٍ ثقيل إلى شوق، ومن تكليفٍ مفروض إلى لذة قرب.

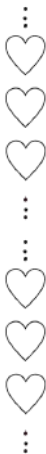
إننا في هذا الكتاب لا نبحث عن الحب بوصفه شعورًا عابرًا، بل بوصفه أصلًا يُبنى عليه الإيمان، وقيمة تُقاس بها حقيقة الولاء، ومنهجًا يُعاد من خلاله تشكيل علاقة الإنسان بالله، وبالرسول، وبأهل بيته، وبالناس جميعًا. ومن هنا، فإن هذه الرواية ليست مجرد مدخل نظري، بل هي مفتاح لفهم كل ما سيأتي بعدها، إذ بها يُفهم أن الدين في حقيقته ليس إلا قصة حب كبرى... تبدأ بالله، وتنتهي إليه.





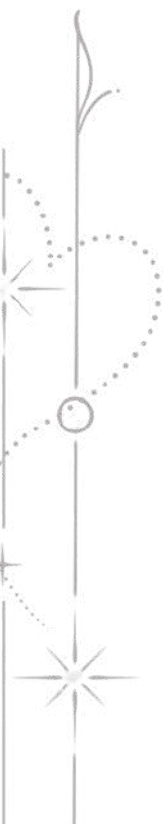
مدخل البحث

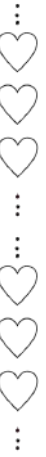
- معنى الحب في فكر أهل البيت عليهم السلام.
- لماذا كان الحب عندهم أساس الدين لا فرعه.
- روايات مثل: هل الدين إلا الحب عن الإمام الصادق عليه السلام.



مدخل البحث

- معنى الحب في فكر أهل البيت عليهم السلام.





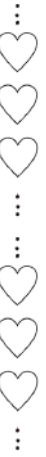
حين يُطرح مفهوم الحب في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، فإنه لا يُفهم بوصفه مجرد حالة وجدانية عابرة، ولا عاطفةً إنسانية محدودة بحدود الانفعال، بل هو حقيقة مركبة، تبدأ من عمق المعرفة، وتنتهي عند ذروة السلوك.

فهو ليس إحساسًا طارئًا، بل بناءً يتشكل في القلب على أساسٍ من الوعي، ويتجلى في الخارج على هيئة عملٍ وخدمة.

إن أول ما يؤسس للحب هو المعرفة؛ إذ لا يمكن للقلب أن يتعلق بما يجهله، ولا أن ينجذب إلى ما لا يدركه.

ومن هنا، كانت معرفة الله جل وعلا هي المنبع الأول للحب، فكلما ازداد الإنسان إدراكًا لجلال الله وكماله، وكلما تأمل في آياته، وتفكر في نعمه، وتدبر في حكمته، انفتحت في داخله آفاق جديدة من التعلق به. إن المعرفة هنا ليست مجرد معلومات، بل هي حضورٌ قلبي، واستشعارٌ دائم بعظمة الخالق، يجعل القلب مهياً لأن يحب، لا عن تكلف، بل عن انجذاب طبيعي إلى الكمال المطلق.





غير أن هذا الحب لا يبقى حبيس الداخل، ولا يكتفي بأن يكون حالة روحية منقطعة عن الواقع، بل يتحول . بطبيعته . إلى سلوك. فمن أحب الله، أحب ما يحب، وأحب خلقه الذين هم آثار رحمته وتجليات قدرته. ومن هنا، تصبح خدمة الناس، والرحمة بهم، والسعي في قضاء حوائجهم، امتدادًا طبيعيًا لذلك الحب الأول. فلا يكون الإحسان مجرد واجب أخلاقي، بل يصبح تعبيرًا صادقًا عن علاقة العبد بربه.

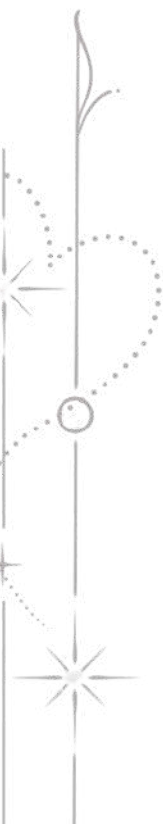
وهكذا، يتشكل الحب في هذا المنهج على محورين لا ينفصل أحدهما عن الآخر: معرفة تُؤلّد التعلق، وتعلّق يُثمر خدمة. فإذا انفصلت المعرفة عن الخدمة، تحولت إلى جمود، وإذا انفصلت الخدمة عن المعرفة، فقدت روحها وصدقها. أما إذا اجتمعا، نشأ الحب الحقيقي الذي يريده الله لعباده.

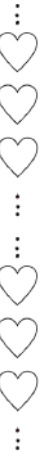
ومن هنا، نفهم أن الحب في مدرسة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم ليس انطواءً على الذات، بل انفتاحًا على الله والناس معًا؛ هو صعودٌ روحي نحو الخالق، وانحدارٌ رحيم نحو المخلوق. وبقدر ما يتحقق هذا التوازن في قلب الإنسان، بقدر ما يكون حبه صادقًا، ودينه حيًا، وسلوكه معبرًا عن تلك الحقيقة التي أرادها الله: أن يكون الإنسان محبًا له، عاملاً في خلقه.



مدخل البحث

- لماذا كان الحب عندهم أساس الدين لا فرعه.



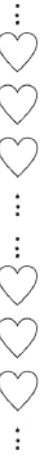


حين نقرأ كلمة الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب؟!»، قد يبدو لأول وهلة أن الحب جزء من الدين، أو خلق من أخلاقه، لكن التأمل العميق يكشف أن هذه الكلمة تقلب المعادلة تمامًا؛ فالحب ليس جزءًا من الدين، بل هو الأصل الذي يقوم عليه الدين كله.

إن الدين في ظاهره يتكون من عقائد وأحكام وأخلاق، لكن هذه الأبعاد كلها تحتاج إلى روح تحييها، وتمنحها معناها الحقيقي. وهذه الروح هي الحب. فالعقيدة بلا حب تتحول إلى تصديق ذهني جامد، لا يحرك الإنسان ولا يغيّر سلوكه. والعمل بلا حب يصبح عادةً تُمارس، أو تكليفًا يؤدي دون حضور قلبي. وحتى الأخلاق، إن لم تُبنى على حب، فقد تتحول إلى تصنع أو التزام ظاهري لا عمق له.

ومن هنا، كان الحب هو العنصر الجوهرى الذي يمنح الدين حيويته. فهو الذي يحوّل الإيمان من فكرة إلى ارتباط، ومن معرفة إلى انتماء. وهو الذي ينقل الطاعة من كونها عبئًا ثقيلاً إلى كونها شوقًا واشتياقًا. فالإنسان قد يطيع خوفًا أو طمعًا، لكن الطاعة التي تنبع من الحب هي وحدها التي تستمر، وتثبت، وتثمر.





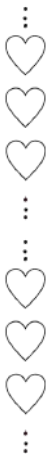
ثم إن الحب يمتاز بكونه معيارًا صادقًا لا يمكن تزيفه بسهولة. فقد يستطيع الإنسان أن يتظاهر بالإيمان، أو يُظهر العمل، أو يتزين بالأخلاق، لكنه لا يستطيع أن يُخفي حقيقة قلبه طويلاً.

فالحب يفرض نفسه في السلوك، ويظهر أثره في المواقف، ويكشف عن حقيقته عند الابتلاء.

ولهذا، كان الحب هو الميزان الذي تُوزن به سائر الأعمال، وهو الأصل الذي تتفرع عنه بقية القيم. فإذا صلح الحب، صلح ما بعده، وإذا فسد، لم تُجدِ معه كثرة الأعمال.

ومن هنا، لم يكن غريباً أن يُختصر الدين كله في هذه الحقيقة، لأن ما سواه إنما هو تفصيل لها، وتجليات لآثارها.





مدخل البحث

- روايات مثل: هل الدين إلا الحب عن الإمام الصادق عليه السلام.



تأتي كلمة الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب؟!» في صيغة استفهام، لكنها في حقيقتها تقريرٌ يحمل أعظم معاني الحصر، كأن الإمام عليه السلام يريد أن ينقل ذهن السامع من تعدد مظاهر الدين إلى وحدته الباطنية، ومن تشعب أجزائه إلى أصلٍ جامعٍ لها جميعًا.

إن هذا الأسلوب لا ينفي وجود العبادات والأحكام، بل يعيد تعريف قيمتها؛ فهي ليست غايات مستقلة، بل وسائل تعبّر عن الحب، وتجسّده في الواقع. فالصلاة، والصيام، وسائر الأعمال، إنما تكتسب معناها من الروح التي تسري فيها، وهذه الروح هي الحب. فإذا خلت منه، بقيت صورًا بلا حياة، وأشكالًا بلا أثر.

غير أن هذا الحب، في المنهج القرآني، لا يُترك بلا معيار، حتى لا يتحول إلى دعوى فارغة أو شعورٍ غير منضبط.

ومن هنا جاء قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، ليضع ميزانًا دقيقًا يختبر به صدق هذا الحب. فليس كل من ادّعى الحب صادقًا، بل الصادق هو من يُترجم حبه إلى اتباع، ويجعل من سلوكه مرآة لما في قلبه.



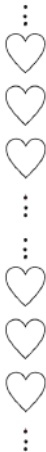


وهكذا تتكامل الدلالة بين الرواية والآية: فالرواية تُعرّف الدين بأنه حب، والآية تُعرّف الحب بأنه طاعة. فينشأ من هذا التكامل تصوّر متكامل: أن الدين في جوهره حب، لكن هذا الحب لا يُعرف إلا من خلال الطاعة، ولا يُقاس إلا بمدى الالتزام.

ومن هنا، يصبح الحب مسؤولية، لا مجرد إحساس؛ طريقًا، لا مجرد شعار. ويغدو الإنسان مدعوًا لأن يفتش في نفسه: هل ما يحمله في قلبه حبّ صادق، أم مجرد ميلٍ عابر؟ وهل ما يقوم به من طاعة هو تعبير عن هذا الحب، أم عادة اعتادها؟

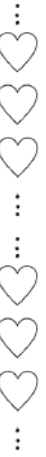
إن هذا الفصل، بما يحمله من دلالات، يشكّل المفتاح الذي يُقرأ به هذا الكتاب كله؛ إذ به يتحدد أن كل ما سيأتي ليس إلا تفصيلًا لهذه الحقيقة الكبرى: أن الدين، في جوهره العميق، ليس إلا حبًا يُعرف بالطاعة، وطاعة لا تقوم إلا على حب.





الفصل الأول الحب أصل الإيمان

- حديث الإمام الباقر عليه السلام: الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله.
- لماذا كان الحب أساس الدين لا فرعه.
- العلاقة بين الحب والولاء لأهل البيت.



تمهيد

ليس الإيمان، في منطق مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، مفهوماً بسيطاً يمكن احتواؤه في دائرة التعريفات الذهنية المجردة، ولا هو مجرد تصديق قلبي ساكن لا يتجاوز حد الإدراك النظري، كما أنه ليس التزاماً شكلياً ينحصر في أداء الطقوس والعبادات بمعزلٍ عن روحها وغاياتها.

إنّ الإيمان . في حقيقته العميقة . تحوّل وجودي شامل، يُعيد صياغة الإنسان من الداخل، ويُنشئ فيه بنيةً جديدةً في الشعور والإدراك، ثم يفيض ذلك على سلوكه ومواقفه، حتى يصبح كيان الإنسان كلّهُ متلوّناً بلون هذا الإيمان.

ومن هنا، فإنّ الإيمان ليس حالةً طارئةً على الإنسان، بل هو هويةٌ تُبنى، ومشروعٌ حياةٌ يُعاش، ومسارٌ يتدرّج فيه العبد من مجرّد المعرفة إلى مقام الانجذاب، ومن مقام الانجذاب إلى مقام الانصهار في قيم الحق.

ولذلك، فإنّ القلب في الرؤية الإمامية ليس مجرّد عضوٍ يُدرك، بل هو مركز التوجّه والانحياز، ومحلّ الحب والبغض، ومنشأ الإرادة والاختيار.





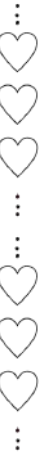
وعلى هذا الأساس، يأتي البيان العميق الوارد عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام):

«الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله»، لا بوصفه تعريفاً جزئياً للإيمان، بل بوصفه كشفاً عن جوهره الحيّ، ولّبّه النابض. فالإيمان، في هذا البيان، ليس مجرد معرفة الحق، بل هو الانحياز العاطفي الواعي إليه، بحيث يُحبّ الإنسان ما يحبه الله، ويُبغض ما يُبغضه الله، فتتشكل عواطفه وفق ميزان السماء، لا وفق تقلبات النفس وأهوائها.

وهنا تتجلّى دقّة هذا التعريف؛ إذ ينقل الإيمان من كونه حالة معرفية جامدة إلى كونه منظومة شعورية حيّة، تُعيد ترتيب سلّم الأولويات في داخل الإنسان، فتجعل علاقاته ومواقفه وتقييماته للأشياء والأشخاص قائمة على أساس القرب من الحق أو البعد عنه. فليس الحب .

في هذا السياق . عاطفة عمياء، ولا البغض انفعالاً سلبياً منفلتاً، بل كلاهما موقف عقائديّ واعٍ، يُعبّر عن انتماء الإنسان واصطفافه.



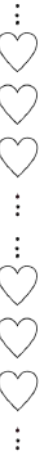


ومن هنا، فإنّ الحب في الله هو تعبير عن الارتباط بالحق في تجلياته، سواء في الأشخاص أو القيم أو الأعمال، بينما البغض في الله هو إعلان براءة من الباطل في كل صوره، فلا يمكن أن يستقرّ الإيمان في قلبٍ يجمع بين الولاء للحق والميل إلى الباطل، لأنّ ذلك يُحدث ازدواجية تُفقد الإيمان صفاءه ونقاؤه.

إنّ هذا الفهم العميق للإيمان يكشف لنا أن المسألة ليست في أن “نعرف” الحق فحسب، بل في أن “نحبّه”، وأن تنجذب نحوه أرواحنا، وأن نأنس به، وأن نشعر بالغبرة عن كل ما يخالفه. فكم من عارفٍ بالحق لم يتحوّل علمه إلى حب، فبقي علمه حجةً عليه لا له، وكم من إنسانٍ التزم ظاهراً بالأحكام، لكن قلبه لم يتشرب روح الولاء، فظلّ إيمانه هشّاً أمام الفتن.

وعليه، فإنّ الإيمان . وفق هذا المنظور . هو عملية إعادة تشكيل شاملة، تبدأ من القلب، حيث يُعاد بناء نظام الحب والبغض، ثم تنعكس على العقل في طريقة التفكير، وعلى الجوارح في طريقة السلوك. فالقلب إذا صلح في ميزان الحب والبغض، صلح ما سواه، وإذا اختلّ هذا الميزان، اختلّت معه سائر أبعاد الشخصية.



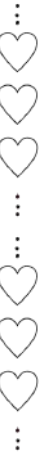


ومن هنا نفهم أن تربية الإيمان في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) لم تكن تقتصر على تعليم الأحكام أو بيان العقائد، بل كانت تهدف إلى بناء “الإنسان المحب للحق”، الذي يجد في القرب من الله وأوليائه لذة، وفي البعد عنهم ألماً، حتى يصبح هذا الحب هو المحرك الأساسي لكل حركاته وسكناته.

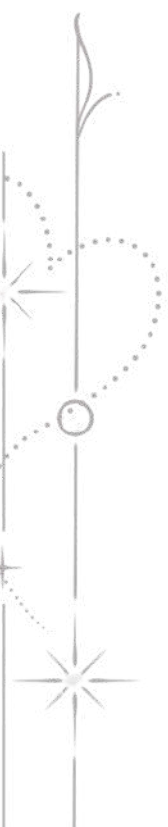
وهذا ما يفتح أمامنا أفقاً واسعاً لفهم العلاقة بين الإيمان والولاية؛ إذ إنّ الولاية ليست مجرد اعتقاد نظري، بل هي امتدادٌ لهذا الحب في الله، وتجسيدٌ له في أوضح صورته، حيث يتجلى الحب للحق في حب أوليائه، ويتجلى بغض الباطل في البراءة من أعدائهم.

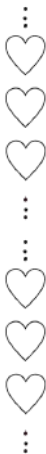
وعلى هذا، فإنّ الحديث الشريف لا يقدم تعريفاً لغوياً للإيمان، بل يرسم خريطةً روحيةً متكاملة، يفهم من خلالها أن الإيمان الحقيقي هو ذلك الذي يُعيد ترتيب قلب الإنسان، فيجعله ميزاناً إلهياً في حبه وبغضه، وفي قربه وبعده، وفي قبوله ورفضه، حتى لا يبقى في داخله موضعٌ للهوى إذا تعارض مع الحق، ولا مجالاً للمصلحة إذا اصطدمت بالقيم.





وهنا تبدأ الرحلة الحقيقية: رحلة الانتقال من إيمانٍ نعرفه، إلى إيمانٍ نعيشه، ومن إيمانٍ نقوله، إلى إيمانٍ نشعر به، ومن إيمانٍ شكلي، إلى إيمانٍ يتحوّل إلى روحٍ تسري في كيان الإنسان كلّهُ، فتجعله صورةً حيّةً للقيم التي آمن بها.





الفصل الأول الحب أصل الإيمان

- حديث الإمام الباقر عليه السلام: الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله.

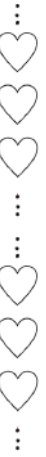


حين يعرف الإمام الباقر عليه السلام الإيمان بأنه «حبٌّ في الله وبغضٌ في الله»، فهو لا يقدم تعريفاً شعورياً سطحياً، ولا يحصر الإيمان في إطار وجداني عابر، بل يكشف عن بنية داخلية عميقة يتكوّن منها الكيان الإيمانى للإنسان. إنّه ينقلنا من ظاهر الأعمال إلى باطن المحرّكات، ومن شكل السلوك إلى منبع التوجّه، حيث تتشكل الميول، وتُصاغ الانحيازات، وتنبثق المواقف التي تحدّد هوية الإنسان في مسيره إلى الله.

فالحب في الله ليس مجرد عاطفة طيبة أو ميل فطري إلى الخير، بل هو فعلٌ قلبي واعٍ، ينشأ من المعرفة بالله، ويتغذى من البصيرة بحقائق الأشياء. هو انجذابٌ نحو الحق بما هو حق، لا بما يحقق مصلحة أو يشبع رغبة. ولذلك فإن هذا الحب يبدأ من التعلّق بالله سبحانه، بوصفه الكمال المطلق، ثم يمتدّ ليشمل كل ما يتصل به: أوليائه الذين تجلّت فيهم معاني الطاعة، وأنبياءه الذين حملوا رسالته، والقيم التي أرادها لعباده منهجاً للحياة.

ومن هنا، فإن الحب في الله ليس أعمى، بل هو مبصر؛ يميّز بين نورٍ وظلمة، وبين أصالةٍ وزيف، فينحاز حيث ينبغي الانحياز، لا حيث تميل النفس أو تدعو الشهوة.

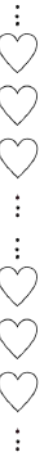




وهذا ما يمنح هذا الحب طابعًا تكوينيًا، إذ يتحول إلى قوة دافعة تشكّل اختيارات الإنسان، وتوجّه قراراته، وتحدّد علاقاته. فالمؤمن لا يحب لأن في الحب راحة نفسية، بل لأنه يرى في المحبوب تجليًا لما يحبه الله، فيلتقي حبه مع إرادة الله، ويصبح حبه امتدادًا لذلك النور الإلهي في داخله.

وفي مقابل هذا الحب، يأتي البغض في الله، لا بوصفه انفعاليًا عدائيًا أو نزعة شخصية، بل كوجه آخر من وجوه الوعي القيمي. إنه رفض عميق لكل ما يناقض الحق، ونفور داخلي من كل ما يشكّل انحرافًا عن صراط الله. وهذا البغض لا يتعلّق بالأشخاص بما هم ذوات مستقلة، بل بما يحملونه من قيم أو مواقف تناقض إرادة الله. فهو موقف من الباطل، لا من الإنسان بما هو إنسان.

ومن هنا، فإن البغض في الله يعبر عن حساسية إيمانية مرهفة، تجعل القلب لا ينسجم مع الظلم، ولا يتصالح مع الفساد، ولا يهادن الانحراف. إنه حالة وعي تجعل الإنسان في حالة تمييز دائم، يرفض أن تختلط عنده المعايير، أو أن تتداخل عنده القيم، فيرى الباطل حقًا أو الحق باطلاً.

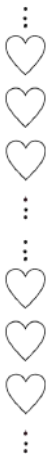


وهنا تتجلى دقة هذا التعريف العلوي للإيمان، إذ لا يجعله مجرد حالة حب مطلق قد تنفتح على كل شيء بلا ضابط، ولا حالة بغض منفلت قد تتحول إلى قسوة وجفاء، بل يقدمه بوصفه ميزاناً دقيقاً بين قوتين: قوة الجذب وقوة الدفع. فالحب يجذب الإنسان إلى منابع النور، والبغض يدفعه بعيداً عن منابع الظلمة، وبين هاتين الحركتين يتشكل خط السير الإيماني المستقيم.

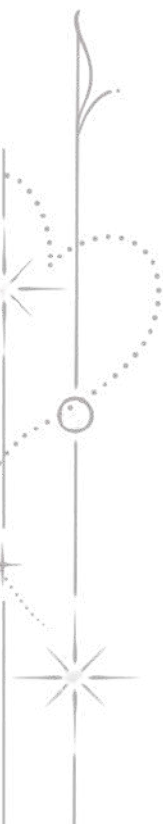
ولو اختلّ هذا التوازن، لاختلّ الإيمان في جوهره؛ فمن أحبّ دون أن يُبغض، فقد القدرة على التمييز، وأصبح قابلاً للانجذاب إلى كل ما يلوح له، ولو كان باطلاً. ومن أبغض دون أن يُحب، تحوّل إلى كيان قاسٍ، مغلق، تحكمه السلبية أكثر مما تحكمه الهداية. أما المؤمن الحقيقي، فهو الذي يحمل قلباً نابضاً بالحب للحق، وفي الوقت نفسه يقظاً بالبغض لكل ما يناقضه.

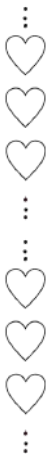
وعلى هذا الأساس، يصبح الإيمان حركة قلبية مستمرة، لا حالة جامدة. إنه اختبار دائم يجريه الإنسان في أعماقه، في كل موقف يمرّ به، وفي كل علاقة يقيمها، وفي كل خيار يتخذه: ماذا يحب؟ ولماذا يحب؟ وماذا يبغض؟ وعلى أي أساس يبغض؟ فإن وجد أن حبه وبغضه يدوران في فلك إرادة الله، وأن ميوله منسجمة مع ميزان الحق، كان ذلك علامة على حياة إيمانه ونضجه. أما إذا اختلّ هذا الميزان، وتشوّهت معاييرها، فإن الخلل لا يكون في السلوك الظاهر فحسب، بل في عمق البنية الإيمانية التي تنتج هذا السلوك.





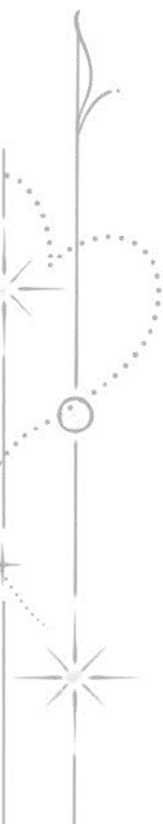
ومن هنا نفهم أن الإيمان، في حقيقته، ليس مجرد تصديق ذهني، ولا التزام عملي فحسب، بل هو قبل ذلك وبعده: نظام حب وبغض، تُبنى عليه سائر المواقف، وتُقاس به سائر الانحيازات، ويُعرف به صدق الانتماء إلى الله.

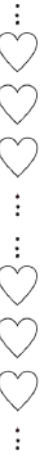




الفصل الأول الحب أصل الإيمان

• الحب كميزان للولاية والاتباع



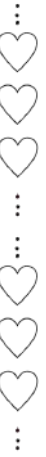


إذا كان الإيمان قد تَشَكَّلَ في جوهره من الحب في الله والبغض في الله، فإن الولاية بوصفها الامتداد الطبيعي لهذا الإيمان لا يمكن أن تُفهم إلا بوصفها تجلّيًا لهذا الحب في صورته العملية.

فالولاية ليست لفظاً يُنطق، ولا شعاراً يُرفع، ولا انتماءً يُعلن في لحظة عاطفية عابرة، بل هي علاقة وجودية عميقة، قوامها الحب، ومآلها الاتباع، وغايتها الانسجام مع خطّ من نُواليه.

إن الإنسان قد يستطيع أن يُظهر الولاء، وأن يُحسن التعبير عنه في القول، وقد ينسج حول نفسه هالة من الانتماء، لكن كل ذلك يبقى في دائرة الادعاء ما لم يُختبر في ميزان الحب؛ لأن الحب هو الكاشف الحقيقي عن صدق العلاقة، وهو المعيار الذي لا يُخادع.

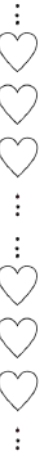
فالحب الصادق لا يبقى حبيس القلب، بل يتحول بطبيعته إلى حركة: من أحبّ، اقترب، ومن اقترب، تشبّه، ومن تشبّه، اتّبع. وهذه السلسلة ليست اختيارية بقدر ما هي قانون تكويني في النفس الإنسانية؛ إذ إن القلب إذا تعلّق بنموذج، سعى بوعي أو بغير وعي إلى أن يُعيد إنتاجه في نفسه.



ومن هنا، تتحول الولاية من حالة ذهنية أو عاطفية إلى مسار عملي حيّ، يُقاس بمدى القرب من النموذج الموالي، لا بمدى الادعاء له. فليس المهم أن يقول الإنسان: أنا أوالي، بل المهم: إلى أي حدّ أصبح سلوكي انعكاساً لمن أواليه؟ وإلى أي مدى اقتربتُ من منطقته، من قيمه، من مواقفه، من روحه؟

وعند هذا الحدّ، يتضح أن الحب ليس عنصراً مكتملاً للولاية، بل هو جوهرها ولبّها؛ إذ لا معنى لولاية خالية من الحب، كما لا قيمة لحبٍّ لا يُثمر اتباعاً. فالحب الحقيقي يحمل في داخله نزوعاً دائماً نحو الانسجام، ويخلق في النفس قلقاً إيجابياً يدفعها إلى مراجعة ذاتها: هل أنا على مستوى هذا الحب؟ هل أعيش ما أحب؟ أم أنني أكتفي بالانتساب اللفظي دون أن أتحمّل مقتضياته؟

إن هذا النوع من الحب ليس ساكناً، بل هو طاقة دافعة، تُحدث في داخل الإنسان حركة مستمرة نحو التغيير والتكامل. فهو لا يرضى من صاحبه أن يبقى كما هو، بل يدفعه لأن يقترب أكثر، لأن يتخلّق بأخلاق من يحب، وأن يزن أفعاله بميزانهم، وأن يستحي أن يُنسب إليهم وهو بعيد عن خطّهم.



ومن هنا، فإن محبة الصالحين وفي طليعتهم أولياء الله لا تعني الإعجاب العاطفي أو التقدير الذهني، بل تعني السعي الجاد إلى التشبّه بهم: في صدقهم الذي لا يتلون، في إخلاصهم الذي لا يتزعزع، في ثباتهم الذي لا تهزّه الظروف.

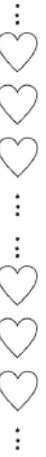
فالحب إن لم يتحول إلى مشروع اقتداء، بقي حالة ناقصة لم تبلغ تمامها.

وعلى هذا الأساس، يصبح الحب ميزانًا دقيقًا تُوزن به دعوى الولاية: فمن كان حبه صادقًا، تجلّى ذلك في سلوكه، في التزامه، في اختياراته، في مواقفه عند مفترق الطرق.

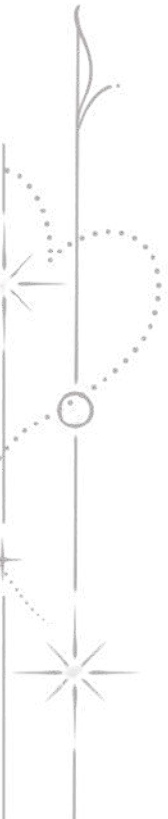
أما من كان حبه ادّعاءً، فإن أول اختبار يكشف هشاشته؛ لأنه حب لم يتجذّر في العمق، ولم يتحول إلى التزام.

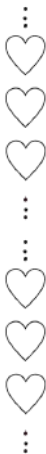
ولذلك، لا يُقاس الولاء بكثرة الشعارات، ولا بحدّة الانفعال، ولا بوفرة الخطاب، بل بمدى الانسجام العملي مع خطّ الولاية. فهناك فرق عميق بين من يتغنّى بالحب، ومن يُترجمه، بين من يرفع راية الانتماء، ومن يعيش تبعاتها.





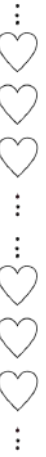
وفي نهاية المطاف، يتبيّن أن الحب في منطق الولاية ليس حالة وجدانية تُضاف إلى حياة الإنسان، بل هو معيارٌ يُعيد تشكيلها من الداخل؛ يحدّد اتجاهها، ويضبط حركتها، ويكشف حقيقتها. فمن أراد أن يعرف موقعه من الولاية، فلا ينظر إلى ما يقول، بل إلى ما يفعل، ولا إلى ما يشعر به في لحظات الصفاء، بل إلى ما يلتزم به في مواقف الاختبار. هناك فقط، يتكلم الحب... ويُحسم الأمر.





الفصل الأول الحب أصل الإيمان

• العلاقة بين الحب والولاء لأهل البيت

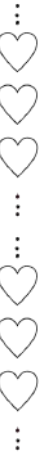


في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، لا يُطرح الحب بوصفه عاطفة تاريخية مرتبطة بشخصيات مضت، ولا بوصفه انفعالاً وجدائياً يُستحضر في مواسم الذكرى، بل يُقدّم بوصفه ارتباطاً حياً بنماذج إلهية اصطفاها الله لتكون الامتداد الأصيل لهداية النبي الأكرم صلوات الله عليه وعلى آل بيته، والتجسيد العملي لقيم الرسالة في واقع الحياة.

ومن هنا، فإن الحب لهم يكتسب بُعداً يتجاوز حدود العاطفة، ليدخل في صميم البناء العقدي والروحي للإنسان.

فمحبّة أهل البيت عليه السلام ليست حالة قلبية معزولة، بل هي موقفٌ معرفي ينشأ من إدراك موقعهم في منظومة الهداية، وانتماءً روحي يربط الإنسان بخطّهم، والتزامٌ عملي يفرض عليه أن يعيد تشكيل سلوكه وفق منهجهم. إنها تعني أن يرى الإنسان فيهم الميزان الذي تُوزن به المفاهيم، والمعيّار الذي يُعرف به الحق من الباطل، والنموذج الذي يُهتدى به في فهم الدين وتطبيقه في أدق تفاصيل الحياة.



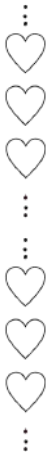


فكم من إنسان حمل محبتهم شعارًا، لكنه لم يحتمل تبعات هذا الحب حين اقتضى منه أن يغيّر نفسه، أو أن يقف موقفًا لا ينسجم مع مصالحه، أو أن يتحمّل كلفة الانتماء الحقيقي. وفي المقابل، فإن من صدق في حبه، ظهر ذلك في استقامته، وفي التزامه بخطهم، وفي سعيه لأن يكون امتدادًا حيًا لقيمهم في واقعه.

وهنا تكتمل الصورة في نسقها المتكامل: فالحب هو الجذر الذي ينبع منه الإيمان، والولاية هي الإطار الذي ينتظم فيه هذا الحب، والاتباع هو البرهان العملي عليه، والولاء لأهل البيت صلوات الله عليهم هو ذروته التي تتجلى فيها هذه المعاني بأصفى صورها. فإذا اجتمعت هذه الأبعاد في قلب الإنسان، لم يعد الإيمان عنوانًا يُقال، بل حقيقة تُعاش؛ تُرى في سلوكه، وتُلمس في مواقفه، وتظهر في قدرته على الثبات حين تتكاثر التحديات.

وعندئذٍ، لا يكون الحب مجرد إحساس، بل يصبح منهجًا، ولا يكون الولاء مجرد انتماء، بل يتحول إلى مسؤولية، ولا يكون الارتباط بأهل البيت مجرد ذكرى، بل يصير مسارًا حيًا يحدّد للإنسان وجهته في كل تفاصيل حياته.

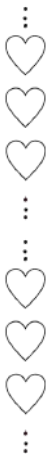




الفصل الثاني

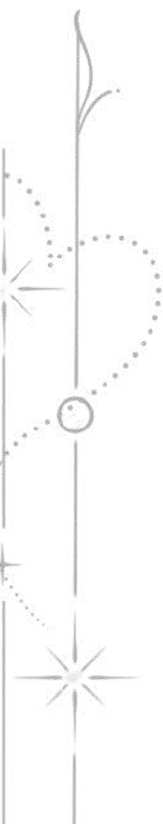
حب الله ورسوله وأهل بيته

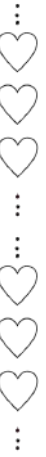
- حديث: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.
- حب علي عليه السلام كمعيار الإيمان: لا يحبك إلا مؤمن.
- كيف كان الأئمة يربون شيعتهم على محبة الله قبل كل شيء



الفصل الثاني حب الله ورسوله وأهل بيته

- حديث: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.





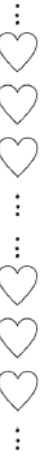
حين يعلن النبي صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه»، فهو لا يضع شرطاً عاطفياً عابراً، بل يؤسّس لمعيار وجودي دقيق، يُعاد على أساسه بناء الإنسان من الداخل.

إنَّه معيار لا يتعلّق بكمّ المعرفة، ولا بظاهر الالتزام، بل بمركز الثقل في القلب: لمن تكون السيادة؟ ولأيّ جهة تنحاز الإرادة حين يتعارض الحق مع هوى النفس؟

فالإنسان، في تكوينه الفطري، مشدود إلى ذاته شداً عميقاً؛ يميل إلى ما يريحه، ويهرب مما يكلفه، ويحرص على ما يحقق له الأمان والمكسب، ويتوجّس من كل ما يهدّد استقراره أو صورته.

وهذه “المركزية الذاتية” ليست عيباً في أصلها، لكنها تتحول إلى عائق حين تتقدّم على معيار الحق. من هنا يأتي التحدي في الحديث: أن يتحوّل محور القلب من “الأنا” إلى “الرسالة”، ومن “ما أريد” إلى “ما يريد الله على لسان نبيّه”.

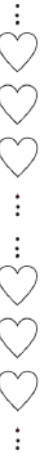




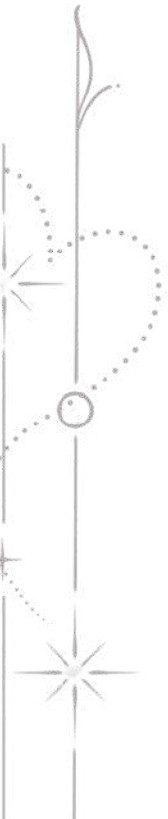
ومن ثمّ، يصبح الحب معيارًا تشخيصيًا للإيمان: كلما ازداد القلب اندماجًا في حبّ النبي صلى الله عليه وآله، ازداد استعدادًا لتقديم الحق على المصلحة، ولتحمل كلفة المبدأ دون تردد. وإذا كان الحب متذبذبًا، انعكس ذلك ترددًا في القرار، وانتقائية في الطاعة، وتقديمًا لما تهواه النفس عند مفترق الطرق.

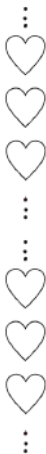
وتاريخ الدعوة شاهد على أن هذا المعيار لم يكن نظريًا قط؛ لقد تكرر امتحانه في مواقف مفصلية: حين طُلب من المؤمنين أن يهاجروا تاركين أوطانهم، أو أن يثبتوا في وجه التهديد، أو أن يقدموا مصالحهم الشخصية في سبيل بقاء الرسالة. في تلك اللحظات، لم يكن السؤال: ماذا نعتقد؟ بل: ماذا نُقدّم؟ وهناك انكشف الفارق بين حبّ يُقال، وحبّ يُضحّى لأجله.

وعلى هذا الأساس، يغدو الحديث الشريف نداءً دائمًا للمراجعة الداخلية، لا يُغلق بزمان ولا يُستنفد بواقعة: أين يقف قلبي حين تتزاحم الدوافع؟ هل أنحاز لما يريحني، أم لما يرضي الله؟ هل طاعتي نابعة من حبّ حيّ، أم من عادةٍ أو صورة اجتماعية؟ إن الصدق في الإجابة ليس مجرد تشخيص، بل بداية تحوّل؛ لأنه يكشف موضع الخلل، ويفتح باب المعالجة.



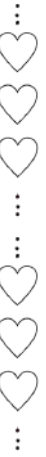
وهكذا، لا يعود الإيمان فكرة تُحفظ، بل مسارًا يُعاش: إعادة ترتيب مستمرة لمراكز الحب في القلب، حتى يغدو حبّ النبي صلى الله عليه وآله هو البوصلة التي تهدي، والمعيار الذي يُرجّح، والقوة التي تمكّن الإنسان من تقديم الحق حتى على نفسه عن طواعيةٍ وطمأنينة. وعندها فقط، يكتسب الإيمان صفة الحياة: حضورًا في القرار، وصدقًا في الموقف، وثباتًا عند الاختبار.





الفصل الثاني حب الله ورسوله وأهل بيته

- حب علي عليه السلام كمعيار الإيمان: لا يحبك إلا مؤمن.

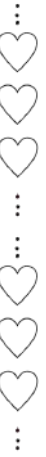


بعد أن قرّر النبي صلى الله عليه وآله أن حبه هو الميزان الذي يُوزن به صدق الإيمان، جاء قوله في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا يحبّك إلا مؤمن، ولا يُغضّك إلا منافق»، ليكشف عن طبقة أعمق من الاختبار؛ طبقة لا تكفي بقياس الانتماء العام، بل تنفذ إلى صميم التكوين القلبي، فتُظهر مدى الانسجام الحقيقي مع الحق في صورته المجرّدة والمجسّدة معًا.

إنّ عليًا (عليه السلام) لم يكن مجرد شخصية تاريخية عظيمة، ولا نموذجًا أخلاقيًا يُعجب به من بعيد، بل كان الامتداد الحيّ للرسالة بعد النبي صلى الله عليه وآله، والتجسيد العملي لقيمها في أدقّ تفاصيل الواقع. فقد التقت في شخصه العدالة التي لا تُساوم، والتقوى التي لا تتلون، والشجاعة التي لا تتراجع، والوفاء الذي لا ينكسر.

ومن هنا، فإنّ العلاقة به ليست علاقة إعجاب، بل علاقة معيار؛ لأنه يمثل الحق حين يشتدّ التباسه، ويجسّد الميزان حين تختلط الموازين.

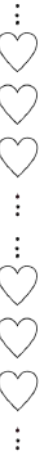




وعلى هذا الأساس، فإنَّ حبَّه ليس عاطفةً تُضاف إلى رصيد المشاعر، بل هو موقف وجودي يكشف عن طبيعة القلب: هل ينسجم مع الحق في صفائه، أم ينفر منه حين يتعارض مع المصالح والأهواء؟ فالمحبُّ لعلِّي (عليه السلام) لا يحبُّ شخصًا بقدر ما يحبُّ منظومةً من القيم تبلورت في شخصه؛ يحبُّ العدل حين يكون مكلفًا، ويحبُّ الصدق حين يكون ثمنه غاليًا، ويحبُّ الثبات حين تشتدَّ العواصف. ولذلك يجد في الاقتراب من نهجه راحةً داخلية، لأن قلبه قد تهيأً أصلاً لاستقبال هذا النوع من الحق.

في المقابل، فإنَّ البغض في هذا الميزان لا يُفهم بوصفه خصومة شخصية، بل بوصفه نفورًا من القيم التي يحملها هذا النموذج. فالقلب الذي يضيق بالعدل الصارم، أو يتناقل عن الصدق الكامل، أو يأنف من تحمُّل كلفة المبدأ، سيجد بطبيعته مسافةً بينه وبين هذا النموذج، حتى لو لم يُصرَّح بذلك.

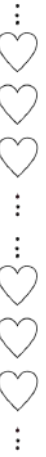
وهنا تتجلَّى دقَّة الحديث: إنه يكشف عن “كيمياء القلب” أكثر مما يحكم على الظواهر؛ لأن الانجذاب والنفور ينبعان من عمق التوافق أو التنافر مع الحق.



ومن هنا، يصبح حبّ علي (عليه السلام) ميزانًا كاشفًا: ليس لأنه اسمٌ يُلقَّظ به، بل لأنه معيارٌ يُختبر به ما في الداخل. فكلما ازداد الحبّ رسوخًا، ازداد الاستعداد للالتزام بمقتضياته، وكلما كان الحبّ سطحيًا، انكشف عند أول مفترق طريق، حين يُطلب من الإنسان أن يختار بين راحته وبين ما يقتضيه نهج الحق.

وقد تعاملت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) مع هذا الحب بوصفه أداةً تربوية عميقة؛ لم تُرد من الإنسان أن يتعلّق بالأشخاص بمعزل عن القيم، بل أن ينفذ من خلالهم إلى تلك القيم في صورتها الحيّة. فالشخص في هذا المنهج ليس غايةً مستقلة، بل مرآة صافية تعكس الحق، ونموذجٌ قابل للاقتداء يُحوّل المبادئ من مفاهيم ذهنية إلى واقع معاش.

ومن هنا نفهم كيف تجلّى هذا المعنى في سيرة الأئمة عليهم السلام، حيث تحوّل الحب إلى التزامٍ عملي عند الامتحان. في مواقف الإمام الحسن بن علي والإمام الحسين بن علي عليهما السلام، لم يكن الحب شعارًا يُرفع، بل كان مسارًا يُدفع ثمنه صبرًا وثباتًا وتضحية. لقد واجهوا الابتلاءات لا بوصفها أحداثًا عابرة، بل بوصفها ساحاتٍ يُختبر فيها صدق الانتماء، فكان حبّهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله ولخطّ الحق هو الذي يمنحهم القدرة على الثبات، حتى حين تصبح الكلفة في أعلى درجاتها.

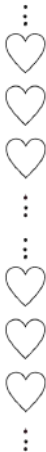


وعند هذا الحدّ، تتضح حقيقة هذا المعيار: فحبّ علي (عليه السلام) ليس حالة وجدانية تُقاس بحدّة الشعور، بل ميزانٌ عملي يُقاس به حركة الإنسان في الحياة.

إنه مرآةٌ تعكس طبيعة القلب: هل هو منجذب إلى نور الحق، أم مثقل بجاذبية الهوى؟ فإن كان الحب صادقًا، تحوّل إلى التزام، وانعكس في السلوك، وصار الإنسان يسعى بوعي وإصرار إلى أن يكون امتدادًا لذلك النهج في مواقفه اليومية.

وهكذا، لا يبقى الحب عنوانًا يُنداول، بل يصبح قوةً مُشكّلة: تُعيد ترتيب الأولويات، وتضبط الانحيازات، وتوحّد البوصلة. وعندئذٍ، يغدو الإيمان حيًّا بالفعل؛ لا يُعرّف بما يُقال عنه، بل بما يُرى منه، حيث تتناغم المشاعر مع القيم، ويتجسّد الولاء في سلوكٍ صادقٍ لا ينفصل عن خطّ الحق في كل الظروف.





الفصل الثاني حب الله ورسوله وأهل بيته

- كيف كان الأئمة يربون شيعتهم على محبة الله قبل كل شيء



إنَّ التربية التي أرساها الأئمة (عليهم السلام) في وجدان أتباعهم لم تكن قائمة على تكريس التعلُّق بهم بوصفهم ذواتًا مستقلة، بل على بناء علاقة توحيدية صافية، يكون الله فيها هو الأصل، وهم الطريق، وتكون محبتهم امتدادًا طبيعيًا لمحبة الله، لا بديلاً عنها ولا منافسًا لها. ومن هنا، فإنَّ محبتهم تُفهم ضمن نظامٍ عقديٍّ دقيق، يُعيد ترتيب مركز الحب في القلب، بحيث يكون الله هو المحور، وكل حبٍّ سواه يدور في فلكه.

فالقلب الذي يتعلَّق بالأئمة عليهم السلام تعلُّقًا صحيحًا، لا يراهم غايةً نهائية، بل يرى فيهم دلائل على الله، ومجاري لهديته، وتجلياتٍ حيَّةٍ لقيمته في الأرض. إنَّه حبٌّ واعٍ، ينفذ من الصورة إلى الحقيقة، ومن الشخص إلى الرسالة، ومن العلاقة بهم إلى العلاقة بالله. ولذلك، فإنَّ هذا الحب لا يُغلق على ذاته، بل يفتح أبوابًا أوسع: باب المعرفة، وباب السلوك، وباب القرب.

وقد أدرك الأئمة (عليهم السلام) بدقَّةٍ تربوية عميقة أن الحب إذا لم يُربط بالله، فإنه قد ينحرف عن مساره، ويتحوَّل من وسيلة هداية إلى سبب غلوٍّ أو انحراف. فالنفس البشرية تميل إلى التعلُّق، وقد تُفرط في هذا التعلُّق إذا لم يُضبط بميزان التوحيد. ومن هنا، كانوا يؤسسون في نفوس شيعتهم وعيًا واضحًا: أن محبتهم إنما تُطلب لأنها طريق إلى الله، وأن طاعتهم إنما تُراد لأنها امتثالٌ لطاعة الله ورسوله، وأن الاقتداء بهم ليس تعظيمًا لأشخاص، بل التزامٌ بخطِّ إلهيٍّ صافٍ.





وعلى هذا الأساس، تصبح العلاقة معهم تربيةً متكاملة للروح، لا تقف عند حدود العاطفة، بل تتجاوزها إلى إعادة تشكيل الداخل الإنساني. فهي تنقي القلب من التعلّقات المتفرّقة، وتجمعه على محورٍ واحد، وتعيد ترتيب أولوياته، بحيث لا يعود ينظر إلى الحياة من زاوية المنفعة أو الهوى، بل من زاوية القرب إلى الله والانسجام مع إرادته.

وهنا تتجلّى ثمرة هذه التربية في تفاصيل الحياة اليومية؛ إذ لا يبقى الحب حالةً وجدانية معزولة، بل يتحول إلى وعيٍ عمليٍّ ينعكس في السلوك. فالمحبّ الحقيقي لأهل البيت صلوات الله عليهم لا يكتفي بأن يحمل مشاعر تجاههم، بل يتعلّم كيف يُترجم هذا الحب إلى أخلاق: في صدقه مع الناس، في عدله في الحكم، في رحمته في التعامل، في صبره عند الشدائد، وفي التزامه بالمبدأ حين تتزاحم الضغوط. إنّه يجعل من حياتهم نموذجًا يُحتذى، لا قصةً تُروى.

وبهذا، يتحوّل الحب إلى نورٍ هادٍ، لا إلى عاطفةٍ ساكنة؛ نورٍ يكشف للإنسان طريقه، ويمنحه القدرة على الثبات، ويُعينه على مقاومة الانحراف، لأنه يربطه بمنظومة قيمٍ حيّة، لا بمجرد انفعال عابر. كما يصبح هذا الحب رباطاً روحياً دائماً، يشدّ القلب إلى الله في كل لحظة، لأن كل تذكّر لهم هو تذكّر لله، وكل اقتداء بهم هو اقترابٌ منه.

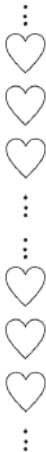


ومن هنا، فإنَّ محبة أهل البيت عليهم السلام — في هذا المنطق — ليست غايةً منفصلة عن الإيمان، بل هي جزءٌ عضويٌّ منه، وأداةٌ من أدوات ترسيخه وتعميقه.

إنها جسرٌ يصل القلب بالحقيقة، ووسيلةٌ تُقَرِّبه من الله، ومنهَجٌ يُعيد توجيه الإنسان في كل مساراته. فالقلب الذي يحبُّهم بحقٍّ، لا يرى في هذا الحب نهاية الطريق، بل بدايته؛ لأنه كلما ازداد تعلقًا بهم على الوجه الصحيح، ازداد اقترابًا من الله، وازداد وعيًا بالحق، وازداد التزامًا به.

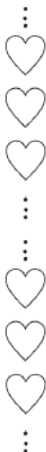
وعندئذٍ، لا يعود الحب مجرد حالة شعورية، بل يتحول إلى بنيةٍ داخلية تُعيد تشكيل الإنسان كلّهُ؛ في نظرته، وفي سلوكه، وفي اختياراته. وهنا تبلغ التربية غايتها: قلبٌ موحدٌ بالله، يسير إليه، ويهتدي بنور أوليائه، ويجعل من كل لحظة في حياته ترجمةً حيَّةً لهذا الحب الصافي.





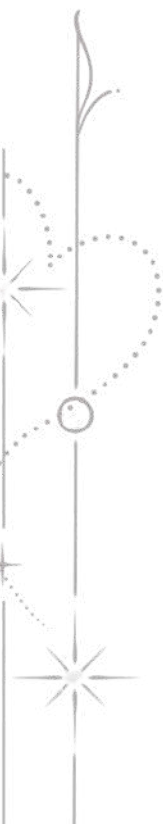
الفصل الثالث الحب بين المؤمنين

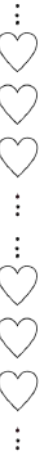
- وصايا أمير المؤمنين عليه السلام: أحب لأخيك ما تحب لنفسك.
- الإيثار عند أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم (مثال: أهل الصُّفَّة، وأصحاب الحسين).
- كسر الحواجز الاجتماعية بالحب الأخوي.



الفصل الثالث الحب بين المؤمنين

- وصايا أمير المؤمنين عليه السلام: أحب لأخيك ما تحب لنفسك.





حين يضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هذه القاعدة: «أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك»، فإنه لا يرسم حدود خُلُقٍ من أخلاق المعاشرة، بل يكشف عن قانونٍ باطنيٍّ يُعاد به بناء الإنسان من جذوره. إنّه لا يتحدث عن “تحسين السلوك”، بل عن “تحويل مركز الوعي”، من ذاتٍ تتمحور حول نفسها، إلى ذاتٍ تتوسّع حتى تستوعب غيرها في داخلها.

فالإنسان، في بنيته الأولى، يعيش داخل دائرة ضيقة اسمها “أنا”: أنا أفكر، أنا أريد، أنا أستحق، أنا أخاف. وهذه الـ “أنا” وإن كانت ضرورية لبقاء الإنسان إلا أنها حين تستقلّ عن ميزان القيم، تتحول إلى محورٍ مغلق، يقيس كل شيء بمقدار ما يعود عليه بالنفع أو الضرر. وهنا تتكاثر مظاهر الأنانية، لا بوصفها سلوكًا عابرًا، بل كمنظومة إدراكٍ تُعيد تفسير العالم وفق مصلحة الذات.

ومن هنا تأتي هذه الوصية لتكسر هذا الإنغلاق من الداخل، لا بفرضٍ خارجي، بل بإعادة تشكيل الشعور نفسه. فهي لا تقول: “أعط أخاك” أو “ساعد أخاك” فحسب، بل تقول: اجعل معيارك في التعامل معه هو نفسك. أي انقل ميزان التقييم من خارجك إلى داخلك، وابدأ بالسؤال: لو كنتُ أنا في موقعه، ماذا كنتُ أريد؟ ماذا كنتُ أتمنى؟ ماذا كنتُ أرفض؟

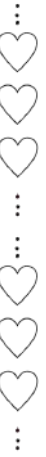
هذا التحويل البسيط في ظاهره، العميق في جوهره، يُحدث انقلابًا في البنية الشعورية؛ لأن الإنسان حين يقيس الآخر بنفسه، فإنه يُخرجه من دائرة “الغيرية” إلى دائرة “الامتداد”. فلا يعود الآخر “موضوعًا” للتعامل، بل يصبح “نسخة أخرى من الذات” ينبغي أن تُحاط بنفس العناية والحرص.

وهنا نصل إلى لبّ هذه القاعدة: إنها ليست مساواة حسابية، بل وحدة شعورية. ليست أن تعطيه مثل ما تأخذ، بل أن تشعر به كما تشعر بنفسك. فالحبّ الأخوي، في هذا المستوى، لا يُختزل في الأفعال، بل ينبع من رؤية جديدة للإنسان: رؤية ترى في الآخر شريكًا في الوجود، لا منافسًا على الموارد.

ومن هنا، فإن هذه الوصية لا تتوقف عند دائرة العاطفة، بل تتسرّب إلى كل مفاصل السلوك:

ففي ميدان العدالة، تمنع الإنسان من الظلم؛ لأنه لا يرضاه لنفسه.
وفي ميدان الكرامة، تمنعه من الإهانة؛ لأنه لا يقبلها على ذاته.
وفي ميدان الحقوق، تدفعه إلى الإنصاف؛ لأنه يطلبه لنفسه.
وفي ميدان الرحمة، تجعله مبادرًا لا مترددًا؛ لأنه يحب أن يُرحم.

إنها تتحول إلى ميزان داخلي دائم، يعمل حتى في غياب الرقابة، لأن الرقيب لم يعد خارجيًا، بل صار متجذرًا في الشعور ذاته.



ثم إن لهذه القاعدة بُعدًا أدقّ، وهو أنها لا تكفي بمنع الشر، بل تدفع إلى الإحسان. فليس المطلوب أن تكفّ أذاك عن أخيك فحسب، بل أن تمنحه ما تحب أن يُمنح لك من خير.

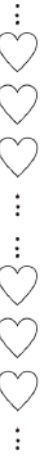
وهنا يرتقي الإنسان من مرحلة “عدم الظلم” إلى مرحلة “بذل الخير”، وهي مرحلة أعلى في مدارج الإيمان.

وعند هذا الحدّ، تبدأ الأنانية بالتحوّل لا بالقمع، بل بالتوسعة. فالإنسان لا يُطلب منه أن يُغض نفسه، بل أن يُوسّع دائرة محبّته بحيث تشمل غيره. فبدل أن يقول: “أنا أولاً”، يبدأ يقول: “نحن معاً”. وبدل أن يرى الخير محدودًا يجب احتكاره، يبدأ يراه واسعًا يمكن مشاركته.

وهذا التحوّل، إذا ترسّخ، يُنتج إنسانًا مختلفًا تمامًا: إنسانًا لا يعيش القلق من نجاح الآخرين، ولا يحترق بالحسد، ولا يشعر بالتهديد من تقدّم غيره؛ لأنه يرى في ذلك امتدادًا لذاته، لا انتقاصًا منها.

وهنا تنطفئ جذور كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية التي تنشأ من تضخّم “الأنا”.



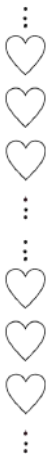


أما على مستوى المجتمع، فإن هذه القاعدة إذا فُعلت بوعي تتحول إلى نظامٍ أخلاقي متكامل، يسبق القوانين ويتجاوزها. فالقانون يمنع الظلم خوفاً من العقوبة، أما هذه القاعدة فتمنعه بدافع الضمير. والقانون ينظم العلاقات، أما الحب الأخوي فيُحييها.

وفي مجتمعٍ يعيش هذه الروح، تقلّ الحاجة إلى الصراع؛ لأن كل فرد يحمل في داخله ميزاناً يمنعه من التعدي، ويدفعه إلى العطاء. فتقوى الثقة، وتتسع الرحمة، وتذوب الفوارق النفسية، ويشعر الجميع بأنهم في كيانٍ واحد، لا في جزرٍ متباعدة.

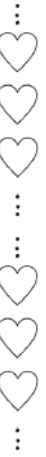
وعند التأمل الأعماق، نجد أن هذه الوصية ليست فقط معياراً للسلوك، بل مرآة تكشف حقيقة الإنسان: فكلما وجد نفسه عاجزاً عن أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، أدرك أن في داخله بقايا أنانية تحتاج إلى تهذيب. وكلما اقترب من تحقيقها، أدرك أنه يقترب من جوهر الإيمان.

وهكذا، تتحول هذه الكلمة القصيرة إلى مشروع تربويٍّ كامل: تبدأ بإعادة تعريف الذات، ثم بإعادة تشكيل الشعور، ثم بضبط السلوك، ثم ببناء المجتمع، حتى تصل في نهايتها إلى تحقيق إنسانٍ متوازن، قلبه متسع، وروحه منفتحة، وعلاقته بالآخرين قائمة على الحب الصادق الذي لا ينفصل عن الإيمان



الفصل الثالث الحب بين المؤمنين

- الإيثار عند أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم.



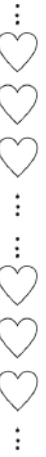
إذا كان الحبّ الأخوي يقتضي أن يرى الإنسان أخاه بعين نفسه، وأن يحبّ له ما يحبّ لها، فإن الإيثار يمثل القفزة النوعية في هذا المسار؛ إذ ينتقل فيه الإنسان من مستوى “المساواة” إلى مستوى “التقديم”، فلا يكتفي بأن يُشرك غيره فيما يحب، بل يقدّمه على نفسه، حتى في موارد الحاجة والضيق.

وهنا لا يعود الحب مجرد حالة توازن، بل يتحوّل إلى حالة ترجيح، يُقدّم فيها الآخر لا لشيء إلا لأنه داخل في دائرة هذا الحب الصادق.

والإيثار، في حقيقته، ليس فعلاً طارئاً أو اندفاعاً عاطفياً لحظياً، بل هو ثمرة بنيةٍ داخليةٍ نضجت حتى تجاوزت مركزية الذات.

فالإنسان في حالته العادية يقيس الأشياء بمقدار ما تمنحه له، أما في حالة الإيثار، فإنه يعيد تعريف “المنفعة” نفسها، فيرى أن عطاءه لغيره هو عين كماله، وأن حرمانه الظاهري قد يكون امتلاءً باطنياً لا يدركه من بقي أسير الحسابات المادية.



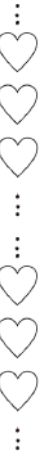


ومن هنا، نفهم كيف تجلّى هذا المعنى في تجربة أهل الضّقّة في عهد النبي صلى الله عليه وآله؛ أولئك الذين اجتمع عليهم فقر الظاهر، لكنهم امتلكوا غنى الباطن. كانوا يعيشون القلة، لكنهم لم يعيشوا الضيق؛ لأن قلوبهم لم تكن مربوطة بما في أيديهم، بل بما عند الله سبحانه وتعالى. فكانوا يتقاسمون القليل بروح من الرضا، ويمنحون ما يملكون بطمأنينة، وكأنهم لا يفقدون شيئاً، بل يكتسبون. لقد أعادوا تعريف الغنى، فجعلوه غنى النفس، لا غنى اليد.

غير أن هذا المعنى يبلغ ذروته الوجودية في كربلاء، في أصحاب الإمام الحسين بن علي عليه السلام، حيث خرج الإيثار من دائرة المال والمتاع، ليدخل في دائرة الحياة نفسها. هناك، لم يكن السؤال: من يعطي؟ بل: من يقدّم نفسه؟ ولم يكن التحدي في بذل شيءٍ من الخارج، بل في بذل الوجود كلّهُ.

لقد وقف أولئك الصفوة أمام خيارٍ حاسم: البقاء مع الحياة أو البقاء مع الحق، فاختاروا الحق، لا لأن الحياة لا قيمة لها، بل لأن الحياة بلا حق لا معنى لها. وهنا يظهر عمق الإيثار: أن يقدّم الإنسان بقاء القيم على بقاء نفسه، وأن يرى في فئاته الجسدي امتداداً لحياة المعنى.





وما يجعل هذا الموقف أكثر عمقًا، أنه لم يكن اندفاعًا عاطفيًا منفليًا، بل كان وعيًا ناضجًا. لم يكونوا غافلين عن المصير، ولا مخدوعين بوهم النجاة، بل كانوا يدركون تمامًا ما ينتظرهم، ومع ذلك تقدّموا بثبات، لأن ميزانهم الداخلي كان قد حُسم: الحق أولى من النفس، والمبدأ أولى من السلامة، والحبّ الصادق لا يكتمل إلا بالتضحية.

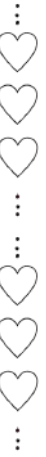
ومن هنا، يتكشف الفارق الجوهرى بين نوعين من الحب: حبّ يكتفي بالإعجاب والانفعال، وحبّ يتحول إلى التزام واستعداد للبذل.

فالأول يبقى في دائرة الشعور، يتأثر ويخبو، أما الثاني، فإنه يترسّخ حتى يصبح قرارًا، وموقفًا، ونهج حياة.

والإيثار هو النقطة التي يخرج فيها الحب من حيّز القول إلى حيّز البرهان؛ لأنه اللحظة التي يقدّم فيها الإنسان ما يحبّه لذاته، ليمنحه لغيره، أو يتركه من أجل مبدأ يؤمن به.

وهنا يثبت أن علاقته بالقيم ليست سطحية، بل متجذّرة في عمقه.



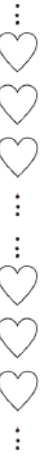


غير أنّ الإيثار، في منطق أهل البيت (عليهم السلام)، ليس حكراً على المواقف الكبرى، ولا مقصوراً على ساحات التضحية العظمى، بل هو روح يمكن أن تسري في تفاصيل الحياة اليومية. فقد يتجلى في موقفٍ بسيط: أن تُقدّم حاجة غيرك على راحتك، أن تتنازل عن حقٍّ يسير لتدخل السرور على قلبٍ آخر، أن تتحمّل مشقةً لتخفف عن غيرك عبئاً.

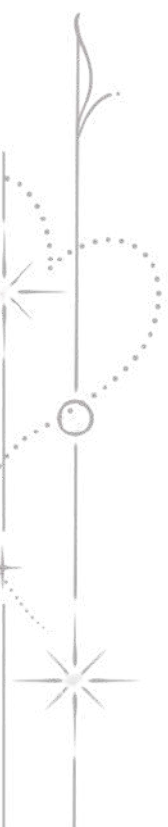
هذه الأفعال الصغيرة في ظاهرها هي في حقيقتها لبنات تبني ذلك القلب الكبير القادر، عند الامتحان الأكبر، على أن يُقدّم ما هو أعظم. فالإيثار لا يُولد فجأة في اللحظات المصيرية، بل يُصنع تدريجياً في تفاصيل الحياة.

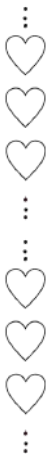
وعلى هذا الأساس، فإن الإيثار ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل هو مقياس دقيق لعمق الإيمان؛ لأنه يكشف عن مدى تحرّر الإنسان من عبودية الذات، ومدى اندماجه في منظومة القيم الإلهية.

فكلما استطاع أن يقدّم غيره ابتغاء وجه الله، اقترب من جوهر الحب في الله، وكلما بقي أسير حساباته الضيقة، أدرك أن أمامه طريقاً لم يُنجز بعد.



وهكذا، يتحول الإيثار من سلوكٍ استثنائي إلى منهج حياة: يبدأ بتوسعة القلب، ويمرّ بتزكية النفس، وينتهي ببناء إنسانٍ يرى في العطاء كماله، وفي التضحية ارتقاءه، وفي تقديم غيره حين يكون ذلك لله طريقه إلى القرب الحقيقي.





الفصل الثالث الحب بين المؤمنين

- كسر الحواجز الاجتماعية بالحب الأخوي.



من أخطر الانحرافات التي تُصيب البناء الاجتماعي، أن تتحوّل الفوارق الطبيعية في المال، أو المكانة، أو النسب، أو العلم من مجرد تنوّع إنسانيّ مشروع، إلى معايير قُطّع وفصل تُعيد تشكيل العلاقات على أساس التفاضل الظاهري، لا على أساس القيمة الحقيقية. عندئذٍ، لا يعود الإنسان يُنظر إليه بما هو إنسان، بل بما يملك أو بما يمثّل، فتتكوّن طبقات نفسية قبل أن تكون طبقات واقعية، ويبدأ التباعد من داخل القلوب قبل أن يظهر في السلوك.

وهنا يتدخّل الحبّ الأخوي في منظوره الإيماني لا بوصفه حُلُفًا مكتملاً، بل كقوّة هادمةٍ لهذه الحواجز من جذورها؛ لأنه لا يعترف أصلاً بتلك المقاييس السطحية التي تُقيم التمايز بين الناس. فالحب في الله يعيد تعريف الإنسان من جديد: لا باعتباره موقعاً اجتماعياً، بل باعتباره كياناً مرتبطاً بالله، تُقاس قيمته بصدق توجهه، ونقاء سريره، واستقامته على الحق.

ومن هنا، فإن الحبّ الأخوي لا يكفي بتقريب المسافات، بل يُلغي منطق المسافات ذاته. فالفقير، في هذا الأفق، ليس “أقلّ” من الغني، بل أحمّ له في الإنسانية والإيمان؛ والقوي ليس متفوّقاً على الضعيف، بل مسؤولاً عنه؛ والغريب لا يبقى على هامش الجماعة، بل يدخل في نسيجها الحيّ. إن الرابط الذي يُعيد تشكيل هذه العلاقات ليس المصلحة ولا المنفعة، بل الانتماء إلى خطٍّ واحد، وإيمانٍ واحد، ووجهةٍ واحدة.



وقد تجلّى هذا المعنى بوضوح في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، حيث لم تكن العلاقات تُبنى على الامتياز، بل على الصدق. لم يكن التفاضل عندهم قائمًا على ما يملك الإنسان، بل على ما يكونه.

ولذلك، كان القرب منهم مفتوحًا لكل من صدق في توجهه، مهما كان موقعه الاجتماعي، وكان الميزان هو الإخلاص، لا الانتماء الطبقي.

وفي هذا السياق، فإن المحبّ لأخيه لا يراه من زاوية الفوقية أو الدونية، بل من زاوية الشراكة. فهو لا يتعامل معه باعتباره “آخر” ينبغي ضبط العلاقة معه، بل باعتباره “رفيق طريق”، يحمل همًّا مشتركًا، ويسير نحو غاية واحدة.

وهذه النظرة تغيّر طبيعة التعامل جذريًا؛ إذ تُسقط كل أشكال التعالي الخفي، وتمنع تشكّل الحواجز النفسية التي تُفسد العلاقات من الداخل.

ثم إن هذا الحب، حين يتجذّر في القلوب، لا يبقى أثره محدودًا في دائرة العلاقات الفردية، بل يمتدّ ليعيد تشكيل البنية الاجتماعية برمّتها. فالحسد — الذي ينشأ من الشعور بالمنافسة والتهديد — يبدأ بالتلاشي، لأن الإنسان لم يعد يرى نجاح الآخر خصمًا من رصيده، بل امتدادًا لخيرٍ يشملّه. والنزاعات — التي تتغذّى على الشعور بالتمايز — تضعف، لأن دوافعها الداخلية قد خفّت.



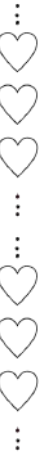
وفي المقابل، تتعزّز مشاعر الانتماء، ويشعر كل فرد بأنه جزء من كيانٍ أكبر، لا يعيش على هامشه، بل في قلبه. وهنا ينشأ ما يمكن تسميته “الأمن الروحي الاجتماعي”: ذلك الإحساس العميق بأن الإنسان ليس وحده، وأنه محاط بروابط حقيقية، لا بعلاقات مصلحة قابلة للانهايار.

ومن أهم ثمار هذا التحوّل، أنه يفتح الباب أمام التكافل الحقيقي. فالعطاء لا يعود مشروطاً، ولا يثقل عليه الكبر، ولا يُعاقبه الشعور بالفوارق، كما أن القبول لا يُثقل عليه الحرج أو الشعور بالدونية. لأنّ الحواجز النفسية وهي أخطر من الحواجز المادية قد انهارت. وعندئذٍ، يصبح الأخذ والعطاء تعبيراً عن وحدةٍ داخلية، لا معاملةً بين طرفين منفصلين.

وهنا تتضح حقيقة عميقة: أن كسر الحواجز الاجتماعية لا يتحقق بالقوانين وحدها، مهما بلغت عدالتها؛ لأن القانون يُنظّم السلوك، لكنه لا يُغيّر القلوب. قد يمنع التمييز الظاهر، لكنه لا يقتلع جذوره الباطنة.

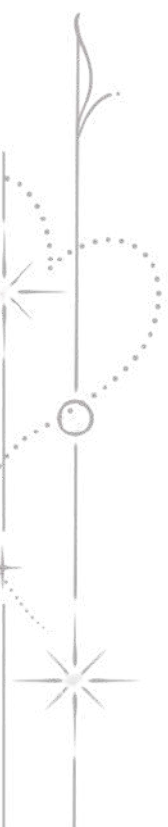
أما الحبّ الأخوي، فإنه يعمل من الداخل، يُعيد تشكيل الشعور، ويطهّر النفس من نزعات الاستعلاء والتمييز، فيجعل المساواة نابعة من القناعة، لا مفروضة بالقوة.

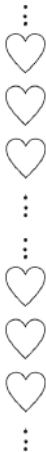




وعندما تبلغ هذه التربية مداها، يتشكّل مجتمعٌ مختلف في بنيته وروحه: مجتمعٌ لا تُدار علاقاته بمنطق المصالح العابرة، بل بمنطق الحب الصادق؛ لا يتماسك بالخوف من العقوبة، بل بالانجذاب إلى القيم؛ لا يعيش أفرادُه في عزلةٍ متجاوزة، بل في قلبٍ جماعيٍّ نابض.

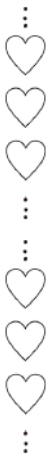
وعندئذٍ، لا يعود المجتمع مجرد تجمع بشري، بل يتحول إلى كيانٍ حيٍّ، تتكامل فيه الأدوار، وتتقارب فيه النفوس، وتُختبر فيه القيم في الواقع، لا في الشعارات. مجتمعٌ يرى فيه كل فرد نفسه في الآخر، ويجد في حبه له امتدادًا لحبه لله، فيتحقق بذلك المعنى الأعمق للأخوة: وحدةٌ في الوجهة، ورحمةٌ في التعامل، وتكاملٌ في المسير.





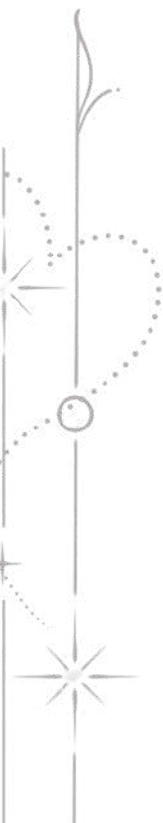
الفصل الرابع الحب في مواجهة الكراهية

- مواقف الإمام الحسن عليه السلام في الصلح، كدرس في الحب وحفظ الدماء.
- الإمام السجاد عليه السلام ودعاؤه لأعدائه في الصحيفة السجادية.
- كيف يحافظ المحب على نقاء قلبه رغم الأذى.



الفصل الرابع الحب في مواجهة الكراهية

- مواقف الإمام الحسن عليه السلام في الصلح، كدرس في الحب وحفظ الدماء.





حين نعيد قراءة موقف الإمام الحسن بن علي المجتبي عليه السلام في الصلح، فإننا نكون أمام لحظة مفصلية لا في التاريخ السياسي فحسب، بل في الوعي الأخلاقي للأمة، لحظة يتجلى فيها الصراع بين منطقتين: منطق الغلبة ومنطق الرسالة، منطق السيف ومنطق البصيرة، منطق اللحظة ومنطق الامتداد. وهنا تكمن عظمة هذا الموقف، إذ لم يكن الإمام الحسن عليه السلام يتحرك في أفق ردّة الفعل، بل في أفق الرؤية الممتدة التي ترى ما وراء الحدث، وما بعد الانتصار، وما بعد الهزيمة.

إن التعمق في هذا الحدث يكشف أن الإمام عليه السلام لم يكن يواجه خصمًا خارجيًا فحسب، بل كان يواجه واقعًا داخليًا متصدعًا؛ جيشًا منهكًا، وولاءات مضطربة، وقيادات قابلة للاختراق، وقاعدة شعبية لم تنضج بعد لتحمل كلفة المواجهة الكبرى.

لقد كان يرى أن الحرب في ظل هذه المعطيات لن تكون حربًا بين حق وباطل بقدر ما ستكون اقتتالًا داخليًا يفتك بالبقية الباقية من روح الأمة. ومن هنا، فإن قراره لم يكن اختيارًا بين الحرب والصلح، بل كان اختيارًا بين تشكيلين من الخسارة: خسارة تحفظ الأصل، وخسارة تستأصل الجذور.



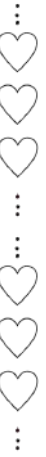
وهذا ما يفتح لنا بابًا لفهم الحب في بُعدهِ الرسالي العميق؛ فالحب هنا ليس عاطفةً تُشبع الذات، بل مسؤوليةٌ تحمي الكيان.

لقد أحب الإمام عليه السلام الأمة بوصفها مشروعًا إلهيًا، لا بوصفها جمهورًا يصفق له. ولذلك، لم يخضع لضغط الجماهير حين كانت تميل إلى الحرب، ولم ينكسر أمام اتهاماتهم حين لم يفهموا قراره.

كان يتحرك من موقع الأب الذي يرى الخطر المحدق بأبنائه، فيمنعهم مما يشتهون، لا قسوةً، بل رحمةً.

ثم إننا إذا دققنا أكثر، وجدنا أن الإمام الحسن عليه السلام كان يدير الصلح لا كاستسلام، بل كإعادة تعريف للصراع. فهو لم يُسلم بشرعية الباطل، ولم يذُب في واقع الانحراف، بل حافظ على خطٍ واضح يفصل بين الموقف الأخلاقي والموقف السياسي.

لقد قبل بوقف القتال، لكنه لم يقبل بتزييف الوعي. وهذا فارق دقيق، لكنه جوهري؛ إذ إن الحب الحقيقي لا يعني التنازل عن الحقيقة، بل يعني اختيار الطريقة التي تحفظها من الضياع.



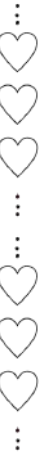
ومن أعمق ما في هذا الموقف، أن الإمام الحسن عليه السلام كان مستعدًا لتحمل الألم المعنوي الذي يفوق أحيانًا ألم الجراح. فالسيف يجرح الجسد، أما الاتهام فيجرح التاريخ.

وقد اتُّهم بالتخاذل، ووُصف بما لا يليق بمقامه، ومع ذلك صبر، لأنه كان يرى أن صبره هذا هو الثمن الأقل مقارنةً بما كان سيحدث لو انفجرت الحرب. وهنا يبلغ الحب ذروته: أن تضحي بسمعتك من أجل سلامة غيرك، وأن تتحمل سوء الفهم من أجل أن لا تُراق قطرة دم.

كما أن في صلح الإمام الحسن عليه السلام بُعدًا استراتيجيًا بالغ العمق؛ فهو لم يكن إغلافاً لمرحلة، بل تمهيداً لمرحلة أخرى. لقد حافظ على ما تبقى من الطليعة الواعية، وصان الخط الرسالي من الإبادة، ليبقى حيًا في وجدان الأمة، حتى يأتي زمنٌ آخر تتجلى فيه المواجهة بشكل مختلف، كما حصل لاحقًا في نهضة أخيه الإمام الحسين الشهيد عليه السلام.

وبهذا، فإن الصلح لم يكن نقيضًا للثورة، بل كان أحد شروط بقائها؛ لأن الثورة إذا فقدت حاضنتها، تحولت إلى لحظة بطولية معزولة لا تصنع تاريخًا.

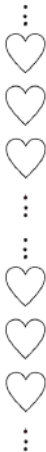




ومن زاوية أعمق، يمكن القول إن الإمام الحسن عليه السلام قد أعاد تعريف مفهوم القوة. فالقوة - في المنظور الرسالي - ليست القدرة على الإخضاع، بل القدرة على ضبط النفس، وعلى اتخاذ القرار الأصعب حين تقتضي الحكمة ذلك. لقد كان بإمكانه أن يخوض الحرب، وأن يسجل موقفًا بطوليًا يُرضي العاطفة، لكنه اختار أن يسجل موقفًا رساليًا يحفظ المستقبل. وهذا هو الفارق بين من يعيش للحظة، ومن يعيش للمسار.

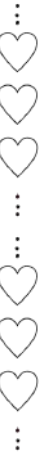
إن صلح الإمام الحسن عليه السلام يعلمنا أن الحب، حين يبلغ درجة النضج، يتحول إلى بصيرة. والبصيرة قد تقود صاحبها إلى قرارات لا يفهمها الناس في حينها، بل ربما يرفضونها، لكنها - في ميزان الزمن - تتكشف عن كونها الأكثر رحمة، والأكثر حكمة. وهنا، فإن أعظم ما في هذا الموقف أنه يحررنا من سذاجة الثنائية السطحية: حرب = قوة، صلح = ضعف. بل يجعلنا نرى أن لكل موقف منطق، وأن القيمة الحقيقية تكمن في حفظ الإنسان، لا في إرضاء الانفعال.

وهكذا، فإن الإمام الحسن عليه السلام لم يقدم صلحًا فحسب، بل قدم نظرية متكاملة في إدارة الصراع على أساس الحب الواعي؛ حب يرى الدم قبل أن يسفك، ويحمي الإنسان قبل أن ينتصر، ويصون الرسالة قبل أن يثبت الذات. وهذا هو الدرس الذي لا يزال - إلى اليوم - من أكثر الدروس حاجةً للفهم، لا سيما في زمن تتكرر فيه الأخطاء ذاتها، لكن بوجوه مختلفة



الفصل الرابع الحب في مواجهة الكراهية

- الإمام السجاد عليه السلام ودعاؤه لأعدائه في الصحيفة السجادية.



حين نتأمل في سيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام، فإننا لا نقف أمام شخصية عابدة فحسب، بل أمام مشروع روحي عميق لإعادة بناء الإنسان من الداخل، بعد أن تهدم الخارج تحت وطأة الفاجعة. فالإمام عليه السلام الذي خرج من كربلاء مثقلًا بذاكرة الألم، لم يخرج ناقمًا، ولا حاقدًا، ولا أسيرًا لردود الفعل، بل خرج حاملاً رسالة من نوع آخر: رسالة تحويل الجرح إلى نور، وتحويل الذاكرة المثقلة إلى منبع رحمة.

ومن هنا، فإن دعاءه لأعدائه — كما تجلى في الصحيفة السجادية — لا يمكن فهمه بوصفه موقفًا أخلاقيًا مجردًا، بل هو ذروة مسار روحي معقد، يمر عبر محطات من الوعي، والمجاهدة، والتصفية الداخلية. إن هذا الدعاء لم يكن انفعاليًا عابرًا، بل كان قرارًا وجوديًا واعيًا: أن لا يسمح للشر أن يعيد إنتاج نفسه في قلبه.

إن الإمام السجاد عليه السلام كان يعيش مفارقة عميقة؛ فهو الإنسان الذي رأى الظلم في أقصى صوره، وعاش تفاصيل المأساة بكل أبعادها، ومع ذلك، لم يسمح لذاكرته أن تتحول إلى مستودع للكراهية. وهنا تكمن النقطة الجوهرية: أن المشكلة ليست في الألم ذاته، بل في ما نصنعه به. فالألم يمكن أن يكون بذرة حق، كما يمكن أن يكون بذرة وغي. والإمام اختار الطريق الأصعب: أن يجعل من ألمه وسيلة للارتقاء، لا للانحدار.



وإذا دققنا في بنية الدعاء في الصحيفة السجادية، نجد أنه لا يقتصر على طلب الخير للنفس أو للأحباب، بل يمتد ليشمل حتى من أساء، وكأن الإمام عليه السلام يعيد تعريف العلاقة مع الآخر، لا على أساس الفعل الذي صدر منه، بل على أساس إنسانيته التي لم تُلغ بخطئه.

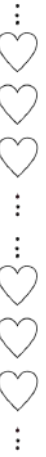
هذه الرؤية ليست سذاجة، بل هي عمق في فهم الطبيعة البشرية؛ إذ يرى أن الإنسان قد يخطئ، وقد يظلم، لكنه يظل قابلاً للهداية، وقابلاً لأن يكون موضوعاً لرحمة الله.

وهنا يظهر بعد آخر بالغ الدقة: أن الدعاء للأعداء ليس موجَّهًا إليهم بقدر ما هو موجَّه إلى الذات.

إنه فعل تطهير داخلي، يهدف إلى تحرير القلب من الرواسب الثقيلة التي تتركها الإساءة. فالكراهية في حقيقتها عبء على صاحبها قبل أن تكون موقفًا من غيره.

والإمام السجاد عليه السلام كان يسعى إلى قلب خفيف، صافٍ، قادر على الاتصال بالله دون حجب، لأن الحق قد من أعظم الحجب.





إن هذا المستوى من الصفاء لا يتحقق دفعة واحدة، بل هو نتيجة مجاهدة طويلة للنفس. فالنفس بطبيعتها تميل إلى ردّ الإساءة بالإساءة، وإلى الاحتفاظ بالذاكرة الجارحة، وإلى استحضار مشاهد الظلم كلما سنحت الفرصة. لكن الإمام السجاد عليه السلام يقدم نموذجًا معاكسًا: نموذج السيطرة على الذاكرة، لا محوها، بل إعادة توجيهها. فهو لا ينسى، لكنه لا يسمح لما يتذكره أن يلوث قلبه.

ومن أعمق ما في هذا المسار، أن الإمام عليه السلام لم يفصل بين العبادة والأخلاق؛ فالدعاء عنده ليس طقسًا تعبديًا منفصلاً عن الواقع، بل هو أداة لإعادة تشكيل الموقف النفسي من الواقع. حين يدعو لعدوه، فهو في الحقيقة يعيد برمجة استجابته الداخلية، ويكسر حلقة التفاعل السلبي التي تجعل الإنسان أسيرًا لأفعال الآخرين. إنه يعلن - بصمت - أنه لا يُدار من الخارج، بل من الداخل.

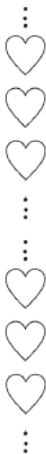
كما أن هذا النهج يكشف عن فهم دقيق لمعنى الانتصار. فالانتصار - في المنطق السائد - هو الغلبة على الخصم، لكن في منطق الإمام السجاد عليه السلام، الانتصار الحقيقي هو أن لا يتحول الإنسان إلى صورة مشوهة من عدوه. أن يبقى وافيًا لقيمه، حتى وهو في موقع الألم. أن لا يسمح للظلم أن يخلق داخله ظالمًا آخر، ولو على مستوى الشعور.



وهذا يقودنا إلى بعدٍ عرفاني أعمق إذا جاز لي التعبير: أن الحب، في أرقى تجلياته، ليس موجَّهًا إلى من يستحق فقط، بل هو حالة وجودية يعيشها الإنسان مع الله، فتعكس على كل من حوله. فالإمام السجاد عليه السلام، حين يدعو لأعدائه، إنما ينطلق من اتصاله بالله، لا من تقييمه لهم. هو يعيش في دائرة الرحمة الإلهية، فيفيض منها على الجميع، دون أن يعني ذلك تبرير الظلم أو القبول به.

إن هذا النموذج يحرر الإنسان من ثنائية الفعل ورد الفعل، ويضعه في أفق أعلى: أفق المبادرة الأخلاقية. فلا يعود ينتظر أن يُحسن إليه ليُحسن، أو أن يُنصف ليُنصف، بل يتحرك من منطلق قيمي ثابت. وهذا هو سر الحرية التي أشرتم إليها: أن لا تكون مرآة لغيرك، بل أن تكون تعبيرًا عن حقيقتك أنت.

وهكذا، فإن الإمام السجاد عليه السلام لم يعلِّمنا كيف ندعو فحسب، بل علِّمنا كيف نكون. علِّمنا أن القلب يمكن أن يظل نقيًا حتى في أكثر الظروف قسوة، وأن الإنسان يستطيع — إذا بلغ هذا المستوى من الوعي — أن يحوّل أكثر التجارب إيلاّمًا إلى سلّم يرتقي به نحو الله، لا إلى قيد يشده إلى الأرض.



الفصل الرابع الحب في مواجهة الكراهية

- كيف يحافظ المحب على نقاء قلبه رغم الأذى.



إن الحديث عن نقاء القلب في ظل الأذى ليس حديثًا عن حالة مثالية معزولة، بل عن معركة داخلية دقيقة، مستمرة، تتجدد مع كل موقف، ومع كل جرح، ومع كل خيبة. فالمحب لا يُمتحن حين يُحب، بل حين يؤذى، ولا يُعرف صدق صفائه في لحظات الانسجام، بل في لحظات الاستفزاز والانكسار. وهنا بالضبط يبدأ العمق الحقيقي لهذا المفهوم: كيف يحافظ الإنسان على قلبه وهو في قلب العاصفة، لا خارجها.

إن أول تحول جوهري يطرأ على وعي المحب هو انتقاله من ردّ الفعل إلى الفعل الواعي؛ أي من أن يكون تابعًا لما يحدث له، إلى أن يكون صانعًا لكيفية استجابته. فالأذى - في حقيقته - حدث خارجي، لكن الكراهية اختيار داخلي. وهذه المسافة بين الخارج والداخل هي المساحة التي يُبنى فيها نقاء القلب أو ينهار. فالمحب، حين يُدرك هذه الحقيقة، يبدأ في استعادة سيادته على نفسه، فلا يعود أسيرًا لانفعالاته، بل مراقبًا لها، موجّهًا لمسارها.

غير أن هذا الإدراك لا يلغي الألم، ولا يخفف من حدّته بالضرورة، بل يغيّر طريقته في التعامل معه. فالمحب لا ينكر جرحه، ولا يتجاهل ألمه، بل يعترف به بصدق، لكنه يرفض أن يمنحه سلطة التحول إلى حقد. وهنا تظهر مرتبة دقيقة من الوعي: أن تفصل بين الإحساس بالأذى، وبين اتخاذ موقف داخلي منه. فقد يتألم القلب، لكن لا يقسو؛ وقد تنكسر النفس، لكنها لا تنحرف.





ومن أعمق ما يحفظ نقاء القلب، أن يتعلم الإنسان إعادة تفسير الأذى ضمن أفق أوسع. فبدل أن يرى نفسه ضحية دائمة، يبدأ في قراءة الأحداث بوصفها اختبارات، أو مرايا تكشف له مواطن ضعفه، أو حتى فرصًا للترقي الروحي. هذه القراءة لا تلغي ظلم الآخرين، لكنها تمنع أن يتحول هذا الظلم إلى مركز وعيه. فالمحب لا يشغل بمن آذاه بقدر ما يشغل بما يجب أن يكون عليه.

ثم إن من أعقد التحديات التي تواجه المحب، هي إدارة الذاكرة. فالأذى لا ينتهي بانتهاء الحدث، بل يمتد عبر التذكر، وقد يتجدد مرات لا تحصى. وهنا، فإن نقاء القلب يتطلب نوعًا من التربية الواعية للذاكرة: أن لا تُستحضر الجراح إلا بقدر ما يُصلح، لا بقدر ما يُفسد. أن يتعلم الإنسان كيف يضع حدًا لاجترار الألم، لأن تكرار الاستحضار قد يحوّل الجرح الصغير إلى ندبة عميقة.

وفي هذا السياق، يصبح الذكر والدعاء ليسا مجرد ممارسة تعبدية، بل آلية دقيقة لإعادة التوازن الداخلي. فالإنسان، حين يتصل بالله، يخرج ولو مؤقتًا من ضيق الحدث إلى سعة المعنى، ومن ثقل الواقع إلى خفة التوكل. وهنا يبدأ القلب في استعادة صفائه، لا لأن المشكلة انتهت، بل لأن موقعه منها تغيّر. لم يعد غارقًا فيها، بل صار قادرًا على النظر إليها من علٍ.

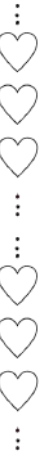




كما أن المحب يحتاج إلى حكمة عملية توازي صفاء الداخلي؛ إذ إن نقاء القلب لا يعني تعطيل أدوات الحماية. فمن الخطأ أن يُفهم الصفاء على أنه قبول مستمر بالأذى، أو تسليم بلا حدود. بل إن من مقتضيات النقاء أن يحفظ الإنسان نفسه من التكرار العبثي للجراح. فقد يبتعد، أو يضع حدودًا واضحة، أو يعيد ترتيب علاقاته، لكن كل ذلك دون أن يحتمل قلبه ضغينة. فهو يفرّق بين الحزم الخارجي، والصفاء الداخلي؛ قد يكون حازمًا في موقفه، لكنه رحيماً في باطنه.

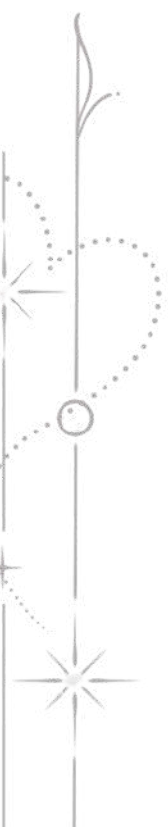
ومن النقاط الدقيقة أيضًا، أن المحب يتعلم أن لا يربط قيمته الذاتية بتعامل الآخرين معه. فكثير من الألم ينشأ من هذا الربط الخفي: حين يُساء إليك، فتشعر أنك أقل، أو أنك لم تُقدّر كما ينبغي. لكن المحب، حين ينضج، يدرك أن قيمته لا تُستمد من تقدير الناس، بل من صلته بالله، ومن صدقه مع نفسه. وهذا الفهم يحرره من كثير من الانكسارات، ويجعله أقل قابلية للتأثر بالإساءة.

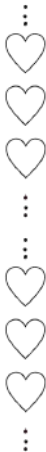
وأخيرًا، فإن نقاء القلب ليس حالة جامدة تُكتسب مرة واحدة، بل هو سيرورة دائمة، تحتاج إلى مراجعة مستمرة، ومراقبة دقيقة، وتجديد نية لا ينقطع. قد يضعف الإنسان، وقد يتسلل إليه شيء من الضيق أو الكدر، لكن الفرق بينه وبين غيره، أنه لا يترك هذه الحالة تستقر، بل يسارع إلى تنظيف قلبه، كما ينظف الإنسان بيته كلما تراكم فيه الغبار.



وهكذا، فإن المحب الحقيقي لا يُقاس بقدر ما يحب في أوقات الصفاء، بل بقدر ما يحافظ على هذا الحب في أوقات القسوة. إنه إنسان اختار أن يكون نقيًا، لا لأن العالم كذلك، بل رغم أن العالم ليس كذلك.

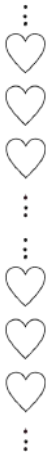
وفي هذا الاختيار تكمن قوته الحقيقية؛ قوة لا تُرى في الخارج، لكنها تصنع في الداخل إنسانًا لا تكسره العواصف، لأنه تعلّم كيف يكون أوسع منها.





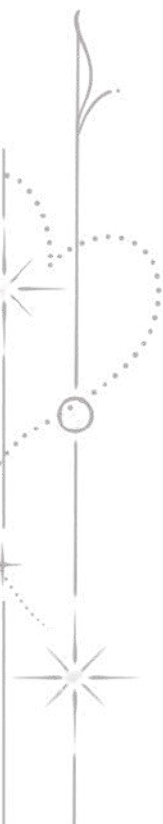
الفصل الخامس الحب للخلق كافة

- رحمة النبي صلى الله عليه وآله حتى بالمنافقين والمشركين.
- سيرة الإمام علي عليه السلام مع اليتيم والأسير.
- إطعام الطعام حتى لمن يعاديك (آية: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً).



الفصل الخامس الحب للخلق كافة

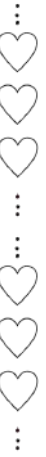
- رحمة النبي صلى الله عليه وآله حتى بالمنافقين والمشركين.



حين نغوص في سيرة النبي الأكرم محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين، فإننا لا نكون أمام ظاهرة أخلاقية عابرة، بل أمام بناء متكامل لمنظومة الرحمة بوصفها جوهر الرسالة، لا هامشها. فالرحمة في شخصه الشريف لم تكن استجابة ظرفية، ولا موقفًا انتقائيًا يُفَعَّل حينًا ويُعْطَل حينًا، بل كانت حالة وجودية ثابتة، تُدير علاقته بالإنسان من حيث هو إنسان، حتى حين يكون هذا الإنسان في موقع الخصومة أو العدا.

إن من أعمق ما يميز رحمة النبي صلى الله عليه وآله، أنها لم تنشأ في بيئة مسالمة، بل في سياق صراع حاد، حيث تعرّض للأذى الجسدي والنفسي، وللتكذيب، وللمقاطعة، وللتشويه المتعمد. ومع ذلك، لم يتحول هذا التراكم من الألم إلى دافع انتقام، بل ظلَّ محكومًا برؤية أوسع: أن هؤلاء - رغم مواقفهم - ليسوا خارج مشروع الهداية، بل هم في طورٍ من أطواره، وإن طال.

وهنا تتكشف لنا بنية فكرية وروحية دقيقة في تعامله مع المنافقين والمشرّكين. فالنبي صلى الله عليه وآله كان يفرّق بين "حقيقة الشخص" و"سلوكه الآني". كان يرى أن السلوك المنحرف لا يُلغي القابلية الكامنة للهداية، ولذلك لم يتعامل مع الخصوم بوصفهم كتلاً مغلقة، بل بوصفهم كائنات مفتوحة على التحول. وهذه الرؤية هي التي حفظت خط الرجوع، وأبقت باب التوبة مفتوحًا، فلم يدفعهم إلى زاوية اليأس التي يتحول فيها الإنسان إلى عدوٍ دائم.



ومن أبرز تجليات هذه الرحمة، تعامله مع المنافقين داخل المجتمع المدني. فمع علمه بما يُضمرّونه، لم يُسارع إلى فضحهم أو استئصالهم، بل اختار إدارة هذا الملف بحكمة بالغة؛ حفاظاً على تماسك البنية الاجتماعية الناشئة.

لأن أي معالجة حادة كانت ستفتح باب الشكوك، وتؤسس لثقافة التصنيف والتخوين، وهو ما يتنافى مع هدف بناء أمة.

لقد قدّم بذلك درساً بالغ العمق: أن الحفاظ على وحدة المجتمع قد يقتضي أحياناً تحمّل وجود عناصر سلبية، بدل تفجير الداخل تحت شعار التطهير.

ثم إذا انتقلنا إلى تعامله مع المشركين، نجد أن الرحمة لم تكن غائبة حتى في ذروة الصراع. ففي أشد لحظات الأذى، لم يُنقل عنه أنه دعا عليهم دعاء استئصال، بل كان يقول: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». وهذه العبارة تكشف عن جوهر نظرته: أن المشكلة ليست في ذات الإنسان، بل في جهله، وأن العلاج هو الهداية، لا الإبادة.

إنه يعيد تعريف الخصم: ليس عدوّاً ينبغي كسره، بل إنساناً ينبغي إنقاذه.





وتبلغ هذه الرحمة ذروتها في لحظة فتح مكة، وهي اللحظة التي تُختبر فيها القيم، لأن الإنسان - غالبًا - يكشف حقيقته حين يمتلك القوة. هنا، حيث اجتمعت كل أسباب الانتقام: تاريخ طويل من الأذى، ومن الإخراج، ومن الحروب، يقف النبي صلى الله عليه وآله ليعلن عفوًا عامًا، لا يستثني إلا حالات محدودة مرتبطة بجرائم جسيمة. هذا العفو لم يكن مجرد تسامح، بل كان إعادة صياغة للوعي الجمعي؛ إذ نقل المجتمع من منطق الثأر إلى منطق العفو، ومن ثقافة الانتقام إلى ثقافة الصفح.

وهنا ينبغي أن نتوقف عند دقة هذا الموقف: فالعفو لم يكن إغناءً للعدالة، بل كان توظيفًا أعلى لها. لأن العدالة - في بعدها الأعمق - لا تعني دائمًا إنزال العقوبة، بل تعني وضع كل شيء في موضعه الصحيح. وفي تلك اللحظة، كان الموضع الصحيح هو فتح صفحة جديدة، تتيح للناس أن يدخلوا في الإسلام دون خوف، وأن يتحرروا من ثقل الماضي.

ومن الزوايا الدقيقة أيضًا، أن رحمة النبي صلى الله عليه وآله لم تكن تعني التنازل عن المبدأ، بل كانت تقترن بصلافة في الموقف. فهو لم يُساوم على التوحيد، ولم يُقرّ الشرك، ولم يُهادن في أصل الرسالة، لكنه - في الوقت ذاته - لم يسمح لهذا الثبات أن يتحول إلى قسوة. وهذه المعادلة الدقيقة بين الثبات والرحمة هي التي شكّلت سرّ تأثيره؛ إذ جمع بين وضوح الحق، وجمال الأسلوب.

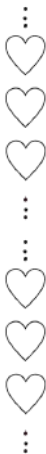




إن هذا النموذج يضعنا أمام مفهوم متقدم للحب: حب لا يُختزل في الميل العاطفي، بل يتجسد في السعي لهداية الآخر، حتى وهو يؤذيكَ. حب لا يلغي البصيرة، بل يُعمِّقها، ولا يُعطِّل العدالة، بل يُهدِّبها. إنه حب يخرج الإنسان من دائرة “ردِّ الفعل” إلى دائرة “الفعل الرسالي”، حيث لا يكون سلوكه انعكاسًا لما يفعله الآخرون، بل تعبيرًا عما يؤمن به هو.

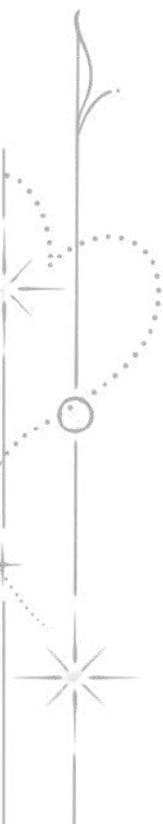
ومن هنا، فإن أعظم ما في رحمة النبي صلى الله عليه وآله، أنها لم تتغيَّر الآخرين فحسب، بل أعادت تشكيل معيار الأخلاق في الوعي الإنساني. فقد بيَّنت أن القوة الحقيقية ليست في القدرة على العقاب، بل في القدرة على العفو حين يكون العفو أقرب إلى تحقيق الغاية الإلهية. وأن الانتصار ليس في إذلال الخصم، بل في تحويله - إن أمكن - إلى شريك في الحق.

وهكذا، فإننا حين نتأمل هذه الرحمة، لا نقرأ تاريخًا مضى، بل نقرأ منهجًا حيًّا، يضع أمام الإنسان خيارًا صعبًا لكنه سام: أن يرى في عدوه إنسانًا لم يكتمل بعد، وأن يتعامل معه على هذا الأساس، دون أن يفقد وضوحه، ودون أن يفترط في قيمه. وهذا هو ذروة الحب حين يلتقي بالبصيرة.



الفصل الخامس الحب للخلق كافة

- سيرة الإمام علي عليه السلام مع اليتيم والأسير.





حين تُمعن النظر في سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نحترافي وصف مفهوم الحب عنده، فهو أسمى من أن يدركه عقلي الناقص وفهمي السطحي، فإننا لا نقف عند حدود الإعجاب الأخلاقي، بل ندخل إلى عمق بنية إنسانية متكاملة، تشكّلت على أساس انسجامٍ نادر بين الداخل والخارج، بين الاعتقاد والسلوك، بين الفكرة وتجلياتها في الواقع.

فليست العظمة هنا في تعدد الفضائل، بل في وحدتها؛ في كونها تنبع من أصل واحد، لا من حالات متفرقة.

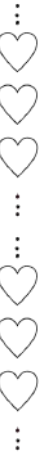
إن أخطر ما يهدد الإنسان في مساره الأخلاقي هو الانفصال بين ما يؤمن به وما يعيشه. فقد يحمل الإنسان قناعات سامية، لكنه يعجز عن ترجمتها حين تُختبر في الواقع، فينشأ داخله نوع من الازدواجية الخفية؛ ظاهرٌ يتزيّن بالقيم، وباطنٌ تحكمه الانفعالات والمصالح.

غير أن الإمام علي عليه السلام متجاوز هذه الهوة، فهو مثلاً حيّاً لوحدة الإنسان، حيث لا ترى فرقاً بين ما يقوله وما يفعله، بل إن فعله هو التفسير الأصدق لقوله.

ومن هنا، فإن تداخل الرحمة مع الوعي في شخصيته لم يكن تركيبيًا اصطناعيًا، بل كان نتيجة وعي عميق بحقيقة الإنسان. فهو لم يكن رحيماً بدافع العاطفة المجردة، بل بدافع فهم دقيق لاحتياجات النفس البشرية، ولما يكسرها وما يجبرها. كان يدرك أن الإنسان لا يُبنى بالقسوة، حتى لو أخطأ، ولا يُصلح بالتحقير، حتى لو انحرف، ولذلك جاءت رحمته واعية، لا عاطفية فقط؛ رحمة تعرف متى تلين، ومتى تصمت، ومتى تحزم، دون أن تفقد جوهرها.

أما العدل في شخصيته، فلم يكن قانونًا جامدًا يُطبَّق ببرود، بل كان عدلاً حيًا، مشبعًا بروح الإنسان. فهو لم يكن يرى العدالة كميزانٍ حسابي فحسب، بل كحالة توازن بين الحق والرحمة، بين الإنصاف والإنسانية. ولذلك، لم يتحول عدله إلى قسوة، ولم تتحول رحمته إلى ضعف، بل ظلّ كلاهما يتحرك في مدار واحد، يحفظ للإنسان حقه دون أن يسلبه كرامته.

وفي هذا السياق، تتجلى قوة نادرة: قوة القدرة على الجمع بين الأضداد دون أن تتناقض. فالقوة عند الإمام علي عليه السلام لم تكن في شدة البطش، بل في القدرة على ضبطه. لم تكن في إظهار الغلبة، بل في التحكم في لحظة الغلبة. فهو القادر في الميدان، لكنه المتواضع في الحياة، وهو الشجاع في الحرب، لكنه اللين في السلم، وهذه التركيبة ليست سهلة، لأنها تتطلب سيطرة عميقة على النفس، وتحررًا من النزعات التي تدفع الإنسان إلى الإفراط أو التفريط.

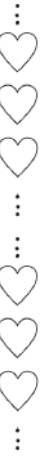


ومن أعمق ما يمكن استحضاره هنا، أن الإمام علي عليه السلام لم يكن يتعامل مع القيم بوصفها “أدوات” يستخدمها حين تناسبه، بل بوصفها “هويته” التي لا ينفصل عنها. فهو لا يكون عادلاً في موقف، ومتساهلاً في آخر تبعاً للمصلحة، بل هو عادل لأنه كذلك، ورحيم لأنه كذلك، وصادق لأنه كذلك. وهذه الثباتية هي التي تمنح شخصيته ذلك الاتزان الفريد.

وهذا يقودنا إلى بُعدٍ أدق: أن الإمام عليه السلام لم يكن يصنع مواقفه من الخارج، بل كانت مواقفه تنبثق من الداخل.

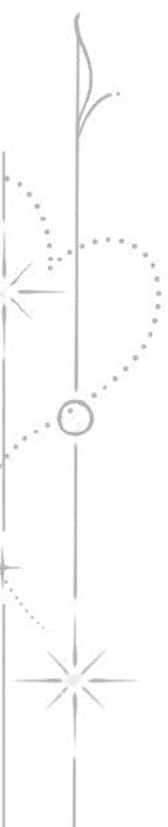
لم يكن يسأل: “ماذا ينبغي أن أفعل هنا؟” بقدر ما كان يعيش حالة يكون فيها الفعل الصحيح هو الامتداد الطبيعي لما هو عليه. وهذا هو الفرق بين من “يتكلف الأخلاق” ومن “يتحقق بها”.

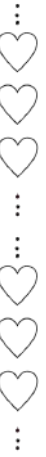
إن هذا المستوى من الاتزان الروحي لا يتحقق إلا حين تتحرر النفس من هيمنة الأهواء، ومن ضغط الرغبات، ومن الخوف من الناس أو الطمع فيهم. فالإمام علي عليه السلام كان متحرراً من هذه القيود، ولذلك استطاع أن يكون صادقاً مع نفسه إلى هذا الحد، وأن يعكس هذا الصدق في كل تفصيل من تفاصيل حياته.



ومن هنا، فإن سيرة الإمام صلوات الله عليه لا تُقدّم لنا نموذجًا أخلاقيًا فحسب، بل تضع أمامنا سؤالًا وجوديًا: كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى هذا المستوى من الوحدة الداخلية؟ كيف يمكن أن يصبح ما يؤمن به هو ما يعيشه، دون فجوة، ودون تردد؟ وهذا السؤال هو في حقيقته دعوة إلى السير، لا إلى الاكتفاء بالإعجاب.

وهكذا، فإننا حين نتأمل هذا البناء الإنساني المتكامل، ندرك أن العظمة الحقيقية لا تكمن في كثرة الأفعال، بل في صدقها، ولا في بروز القيم في الخطاب، بل في تجذرها في الكيان. وهناك، فقط، يصبح الإنسان كما كان الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام مرآة صافية لما يؤمن به، لا ظلالًا متفرقة لما يقول.

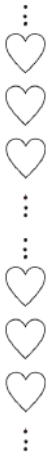




إذا أردنا أن نتعمق أكثر في هذا البعد، فعلينا أن نفهم أن الإمام علي عليه السلام لم يكن يتعامل مع اليتيم بوصفه “حالة نقص”، بل بوصفه “كائنًا مجروحًا يحتاج إلى ترميم داخلي”. فالفقد الذي يعيشه اليتيم ليس حدثًا عابرًا ينتهي بمرور الزمن، بل هو فراغ يتسلل إلى بنية النفس، ويعيد تشكيل نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى العالم.

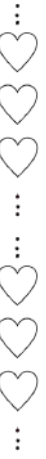
ومن هنا، فإن تعامل الإمام عليه السلام لم يكن محاولة لسدّ هذا الفراغ من الخارج، بل كان سعيًا لإعادة بناء الداخل. حين كان يجلس مع الأيتام، ويطعمهم بيده، لم يكن يقدم لهم طعامًا فحسب، بل كان يقدم لهم رسالة غير منطوقة: “أنتم مرثيون، أنتم مهمون، أنتم لستم خارج دائرة العناية”. وهذه الرسالة – في علم النفس الإنساني – هي حجر الأساس في استعادة التوازن.

إننا لو تأملنا في فعله عليه السلام، لوجدنا أنه يعتمد كسر الحاجز الرسمي بين “الراعي” و “المرعي”، بين “الحاكم” و “المحكوم”. فهو لا يشعر اليتيم بأنه يتلقى من علي، بل بأنه يُحتضن من قرب. وهذه النقطة بالغة الدقة؛ لأن كثيرًا من الإحسان – رغم صدقه – قد يحمل في طياته شعورًا خفيًا بالتفوق، بينما كان الإمام عليه السلام يذيب هذا الفارق تمامًا، ليجعل العلاقة قائمة على الألفة، لا على التفاوت.



الفصل الخامس الحب للخلق كافة

- إطعام الطعام حتى لمن يعاديك (آية: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً).



أولاً: مع اليتيم... عمق الجبر لا سطح الإحسان

إذا أردنا أن نتعمق أكثر في هذا البعد، فعلينا أن نفهم أن الإمام علي عليه السلام لم يكن يتعامل مع اليتيم بوصفه “حالة نقص”، بل بوصفه “كائنًا مجروحًا يحتاج إلى ترميم داخلي”. فالفقد الذي يعيشه اليتيم ليس حدثًا عابرًا ينتهي بمرور الزمن، بل هو فراغ يتسلل إلى بنية النفس، ويعيد تشكيل نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى العالم.

ومن هنا، فإن تعامل الإمام عليه السلام لم يكن محاولة لسدّ هذا الفراغ من الخارج، بل كان سعيًا لإعادة بناء الداخل.

حين كان يجلس مع الأيتام، ويطعمهم بيده، لم يكن يقدّم لهم طعامًا فحسب، بل كان يقدّم لهم رسالة غير منطوقة: “أنتم مرثيون، أنتم مهمون، أنتم لستم خارج دائرة العناية”.

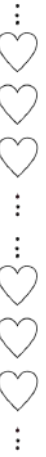
وهذه الرسالة – في علم النفس الإنساني – هي حجر الأساس في استعادة التوازن.



إننا لو تأملنا في فعله عليه السلام، لوجدنا أنه يعتمد كسر الحاجز الرسمي بين “الراعي” و “المرعي”، بين “الحاكم” و “المحكوم”. فهو لا يُشعر اليتيم بأنه يتلقى من علي، بل بأنه يُحتضن من قرب. وهذه النقطة بالغة الدقة؛ لأن كثيراً من الإحسان - رغم صدقه - قد يحمل في طياته شعوراً خفياً بالتفوق، بينما كان الإمام عليه السلام يذيب هذا الفارق تماماً، ليجعل العلاقة قائمة على الألفة، لا على التفاوت.

ثم إن البعد الأعظم في هذا السلوك، أنه يربي المجتمع قبل أن يعالج الفرد. فحين يرى الناس قائدهم يجلس مع الأيتام، ويلاعبهم، ويطعمهم، فإنهم لا يتعلمون مجرد “فعل الخير”، بل يتعلمون “كيف يكون الخير”. يتعلمون أن الرحمة ليست إجراءً، بل حالة حضور، وأن رعاية الضعيف لا تعني إدارته، بل مشاركته.

وهنا نصل إلى لبّ المسألة: أن الإمام علي عليه السلام كان يريد أن يحفظ “إنسانية اليتيم”، لا أن يعالج “وضعه المعيشي” فقط. فالإنسان قد يعيش فقيراً لكنه عزيز، وقد يُغنى مادياً لكنه يظل منكسراً. والإمام عليه السلام كان يشغل على هذا الكسر، لأنه يعلم أن ترميم النفس هو الأساس، وما سواه تبع.



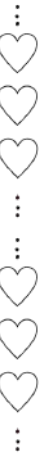
ثانيًا: مع الأسير... إعادة تعريف العدو

أما حين ننتقل إلى الأسير، فإننا ندخل إلى ميدان أكثر حساسية، لأننا نكون أمام إنسانٍ ارتبط اسمه - في الوعي العام - بالعداوة، وربما بالخطر. وهنا، فإن معظم الناس يتعاملون مع الأسير بوصفه امتدادًا للمعركة، لا بوصفه إنسانًا انتهت معركته. لكن الإمام علي عليه السلام يقلب هذا المنطق رأسًا على عقب.

ففي رؤيته، تنتهي صفة "العدو" لحظة سقوط السلاح، ويبدأ اعتبار آخر: اعتبار الإنسانية. فالأسير ليس إذلاً، بل انتقل من حالة الصراع إلى حالة المسؤولية. ومن هنا، فإن التعامل مع الأسير يصبح اختبارًا حقيقيًا للأخلاق؛ لأنك أمام إنسانٍ لا يملك الدفاع عن نفسه، ولا القدرة على ردّ الإساءة.

ومن أعمق ما يُلاحظ في سيرة الإمام عليه السلام، أنه لم يسمح للحظة الانتصار أن تُنتج قسوة. لأن الإنسان - في الغالب - حين ينتصر، يميل إلى استثمار هذا الانتصار في الانتقام، وكأن النصر لا يكتمل إلا بإذلال الآخر. لكن الإمام صلوات الله وسلامه عليه يقدم نموذجًا مغايرًا: نصرٌ يُهذّب النفس، لا يُطلقها.



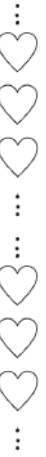


وتبلغ هذه الفكرة ذروتها في تعامله مع عبدالرحمن بن ملجم عليه ما عليه من اللعنة، حيث تتجلى قمة التحدي الأخلاقي؛ إذ نحن أمام قاتلٍ لمجرد خصم، بل قاتلٍ للإمام عليه السلام نفسه، ومع ذلك، لا يخرج الإمام صلوات الله عليه عن ميزانه. يوصي به خيرًا، يطلب إطعامه، يحفظ له حقه كإنسان، وكأنما يريد أن يقول: “جرمك لا يحدد أخلاقي”.

وهنا نلمس بُعدًا فلسفيًا عميقًا: أن الأخلاق الحقيقية لا تُبنى على أفعال الآخرين، بل على ثوابت داخلية لا تتغير. فلو كانت الرحمة رد فعل، لتوقفت عند أول إساءة، لكن لأنها مبدأ، فإنها تستمر حتى في مواجهة أفسى الأفعال.

كما أن هذا الموقف يعيد صياغة مفهوم العدالة. فالعدالة — في بعدها الرسالي — ليست انفلاتًا للعاطفة، بل ضبط لها. ليست إشباعًا للرغبة في الانتقام، بل تحقيق للحق دون زيادة ولا نقصان.

ولذلك، فإن الإمام عليه السلام لم يُلغِ القصاص، لكنه لم يسمح له أن يتحول إلى وسيلة تشفي، بل أبقاه في حدوده، محاطًا بروح الرحمة.

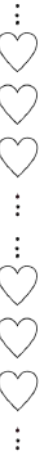


تأمل: فلسفة الحب... من ردّ الفعل إلى الأصل الثابت

إذا أردنا أن نستخرج النظرية الكامنة خلف هذه المواقف، فإننا نجد أن الحب في مدرسة الإمام علي عليه السلام ليس “موقفًا” بل “منطلقًا”. ليس شيئًا يُستدعى عند الحاجة، بل هو الأصل الذي تنبثق منه المواقف.

فالإمام صلوات الله عليه لا يحب اليتيم لأنه ضعيف فقط، ولا يرحم الأسير لأنه عاجز فقط، بل لأنه يرى في كل إنسان قيمة قائمة بذاتها، لا تزول بتغير الظروف. هذه النظرة ترفع الإنسان من كونه “موضوع حكم” إلى كونه “موضوع عناية”، وتغيّر طريقة التعامل معه جذريًا.

وهنا يظهر الفرق الجوهرى بين الحب المشروط والحب المبدئي. الحب المشروط يقول: “أحبك ما دمت تستحق”، أما الحب المبدئي فيقول: “أتعامل معك بما يمليه عليّ مبدئي، لا بما تفرضه عليّ أفعالك”. وهذا لا يعني إلغاء المحاسبة، بل يعني أن المحاسبة لا تُخرج الإنسان من دائرة الاحترام.

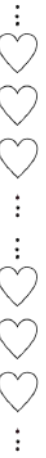


ومن أعمق أبعاد هذه الفلسفة، أنها تحرر الإنسان من التبعية النفسية. فبدل أن يكون ردّ فعله انعكاسًا لما يفعله الآخرون، يصبح فعله تعبيرًا عن ذاته. لا يعود الآخر هو الذي يحدد أخلاقه، بل هو الذي يختار كيف يكون، بغضّ النظر عمّا يواجهه.

وهذا هو سرّ القوة في هذا المنهج؛ لأنه يجعل الإنسان ثابتًا في عالم متغير. لا يتبدل بتبدل الناس، ولا ينكسر بتقلب الظروف، لأنه متصل بمصدر أعلى من كل ذلك. ومن هنا نفهم كيف استطاع الإمام علي عليه السلام أن يجمع بين الشجاعة في الميدان، والرحمة في التعامل، دون أن يرى في ذلك تناقضًا.

وفي المحصلة، فإن سيرة الإمام علي عليه السلام مع اليتيم والأسير ليست مجرد نماذج أخلاقية تُحكى، بل هي دعوة لإعادة بناء مفهوم الإنسان في داخلنا: كيف نراه، كيف نتعامل معه، وكيف نحفظ إنسانيته حتى حين تتعرض للاختبار.

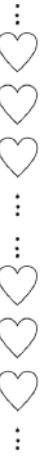
إنها دعوة لأن نرتقي من مستوى “الاستجابة” إلى مستوى “الاختيار”، ومن منطق “المعاملة بالمثل” إلى منطق “الثبات على المبدأ”. وهناك، فقط، يبدأ الحب الحقيقي... الحب الذي لا تفسده الخصومة، ولا تُضعفه الظروف، لأنه متجذر في عمق الروح، لا على سطح العلاقة.



ثالثًا: إطعام الطعام حتى لمن يعاديك (ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا)

حين نتأمل قوله تعالى في سورة الإنسان: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا»، ندرك أننا أمام مدرسة أخلاقية متكاملة، تتجاوز نطاق الإحسان التقليدي، لتصل إلى أرقى مستويات الحب الإنساني والروحي. فهذه الآية لا تتحدث عن فعل واحد، بل عن فلسفة حياة، عن حب يمتد إلى من هو في حاجة، سواء كان قريبًا أو بعيدًا، صديقًا أو خصمًا، آمنًا أو أسيرًا.

أول ما يلفت النظر في هذه الآية هو تحديد المستحقين للطعام: المسكين، اليتيم، والأسير. فالمسكين يحمل معنى الحاجة الفقرية، واليتيم يحمل معنى الجرح النفسي والاجتماعي، والأسير قد يحمل معنى الخصومة أو العدا. وهنا يكمن التحدي الأخلاقي: أن تصل بالرحمة والإحسان إلى من يعاديك، وتقدم له ما تحتاجه نفسك إليه، من دون أن تلتفت إلى عدا الماضي أو موقف الحاضر. وهكذا يتحول الحب من شعور داخلي إلى فعل مادي ملموس، يتجسد في إطعام من هم في أقصى حالات الضعف، وأكثرها حساسية.

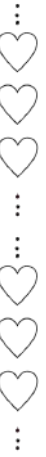


وهكذا، يصبح إطعام الطعام أعلى تجلٍ للحب الإنساني والإيماني، لأنك في لحظة العطاء تعلن أن الآخرين - أيًا كانوا - جديرون بالرحمة، وأن قلبك، في خضم الاختبار، لا يتلوث بالضغينة أو الكراهية. إنها لحظة تنقية للنفس، وترسيخ للكرامة الإنسانية في أعقد الظروف، وترتقي بالإنسان من مستوى التفاعل العاطفي إلى مستوى الفعل الأخلاقي المبدئي، الذي يعلو على كل الحسابات.

ولكي نكمل عمق فهم هذه الآية وتجسيدها في حياة الإنسان المؤمن، علينا أن ندرك أن إطعام الطعام على حبه للمسكين واليتيم والأسير ليس مجرد فعل فردي، بل هو رسالة تربية واجتماعية وروحية متكاملة.

أولاً: من الناحية التربوية، يعلم هذا الفعل الإنسان أن الحب لا يقتصر على الأقارب أو الأصدقاء أو من يحبونه بالمقابل، بل يمتد إلى من هم في حالة ضعف أو حاجة، حتى لو كانوا خصومًا.

وهكذا تتشكل شخصية الإنسان على قاعدة أن الرحمة لا تُقاس بالموقف، بل بالمبدأ. من يطبّق هذا، يربي نفسه على ضبط الأهواء، وعلى تجاوز الانفعال اللحظي، وعلى الوصول إلى مستوى من الوعي الأخلاقي يجعل الفعل نابعًا من القيم الثابتة لا من المزاج أو المصلحة.



ثانيًا: من الناحية الاجتماعية، هذا السلوك يرسّخ تلاحم المجتمع، ويمنع الفتن والتفرقة. فحين يُعامل الأسير أو الخصم بالرحمة، حين يُرعى اليتيم ويُسقى المسكين، فإن هذا يخلق بيئة يحترم فيها الضعيف ويشعر فيها المحروم بالأمان.

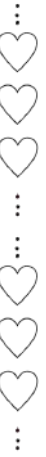
وبهذا، لا يُنظر إلى المجتمع كحلبة صراع مستمرة، بل كمجتمع مسؤولية مشتركة، حيث يتحقق الحب في أفعاله لا في شعوره فقط.

ثالثًا: من الناحية الروحية، هذا الفعل يرفع الإنسان من مستوى الرغبة في العطاء إلى مستوى الإيثار الإيماني الخالص. فهو لا يعطي ليرضى الناس، ولا ليكسب شهرة، ولا ليتجنب الذم، بل ليطيع الله، ويحتفظ بقلبه نقيًا من الحقد والكراهية.

هنا يصبح الطعام رمزًا أعمق: ليس مجرد غذاء للجسد، بل غذاء للروح، وعلامة على قدرة الإنسان على تجاوز الأنانية والانغماس في رحمة الله.

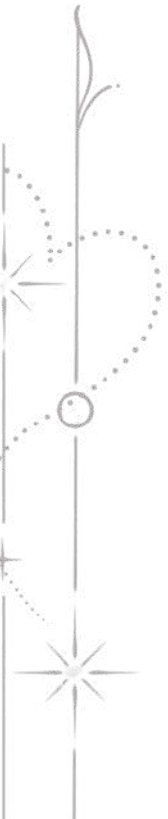
ومن أسمى ما يفيض من هذا المنهج أن الإنسان يتعلم التسامح في أصعب الظروف. فالإعطاء لمن يعاديك يعني أن قلبك لن يُسلب بالقسوة، ولن يتحول الألم أو العداوة إلى حقد، بل يصبح مصدر قوة داخلية، تحمي النفس من الشهوات الأخلاقية، وتغذيها بحب الإنسان كما أراده الله جل وعلا.

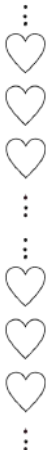




وأخيرًا، في ضوء هذه الآية الشريفة، نرى أن الحب الحقيقي يتحقق حين يصبح الفعل أعلى من الشعور، والحسنى أعمق من المصالح، والكرم أوسع من التوقعات.

فحين يُعطي الإنسان من يحتاج، حتى لو كان خصمه، فإنه بذلك يحقق انسجام قلبه مع قيمه، ويصبح محبًا بحق، لا بالظرف، ولا بالمكافأة، بل بالإيمان والوعي، وهو المستوى الذي ترتقي فيه الروح، ويصبح الإنسان مكملًا لرسالته على الأرض: أن يكون رحمة، حبًا، وعطاءً لا يحده ضيق أو عداوة.





الفصل السادس أمراض الحب الزائف

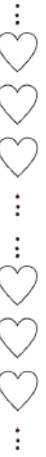
- الحب المصلحي في زمن الأئمة عليهم السلام وكيف حذّروا منه.
- التعلق بالأشخاص دون فهم المبادئ.
- الفرق بين الحب لله سبحانه وتعالى والحب للهوى.



ليس الحبّ حادثةً عابرةً في حياة الإنسان، ولا لحظةً شعوريةً تُطوى كما تُطوى سائر الانفعالات، بل هو مسارٌّ يتشكّل في أعماق الكيان، ويعيد ترتيب الأولويات، ويصوغ طريقة النظر إلى العالم. ومن هنا، فإنّ كلّ خللٍ يصيب الحبّ، لا يبقى محصوراً في دائرة العاطفة، بل يمتدّ ليصيب بنية الإنسان كلّها؛ في وعيه، وفي إرادته، وفي علاقته بنفسه وبربّه.

يبدأ الحبّ الزائف - في كثير من الأحيان - من نقطة خادعة، حيث يظنّ الإنسان أنّه قد بلغ حالة من الصفاء، وأنّ قلبه قد تعلّق بشيءٍ يستحقّ، غير أنّ هذا الشعور لا يكون مستنداً إلى معرفة حقيقية، بل إلى صورة ذهنية، أو انبهارٍ أولي، أو فراغٍ داخلي يبحث عمّن يملؤه. وهنا تتشكّل أولى بذور الانحراف، حين تنفصل العاطفة عن المعرفة، فيتحرك القلب قبل أن يُبصر العقل، ويندفع الشعور قبل أن يتبيّن الطريق.

ومع هذا الانفصال، يبدأ الحبّ في التشكل حول “الذات” لا حول “الحقّ”. فيظنّ الإنسان أنّه يحبّ الآخر، بينما هو - في عمق التجربة - يحبّ ما يمنحه له هذا الآخر من شعورٍ بالامتلاء أو الأمان أو التقدير. يصبح الآخر مرآةً للنفس، لا مقصداً مستقلاً، ويغدو الحبّ علاقةً خفيةً بالذات أكثر منه ارتباطاً حقيقياً بالغير. فإذا ما انقطع هذا الإمداد النفسي، أو اختلّ التوازن، بدأ ذلك الحبّ بالتلاشي، لأنّه لم يكن قائماً على قيمة، بل على حاجة.



وفي هذه المرحلة، يتدخل الوهم ليُجَمِّل الصورة، فيُضفي الإنسان على هذا التعلُّق مسحةً من القداسة، ويمنحه أسماء كبيرة؛ فيسمِّيه وفاءً، أو إخلاصًا، أو ارتباطًا مبدئيًا، بينما هو في حقيقته انجذابٌ موجَّه بالهوى.

وهنا يكمن أخطر ما في الحبِّ الزائف: أنَّه لا يظهر كخطأ، بل كصوابٍ مزيف، فيُخدع به صاحبه قبل غيره.

ويمضي الإنسان في هذا المسار، حتى إذا ما تعرَّض الحبُّ لاختبارٍ حقيقي اختبارٍ يُطالبه بشيء من التضحية، أو يضعه أمام مفترقٍ بين المبدأ والرغبة بدأ التصدَّع بالظهور. فالحبُّ الذي لم يُنَّ على وعي، ولم يُربط بالحقِّ، لا يستطيع أن يصمد أمام الكلفة. عندها، تتراجع العاطفة، أو تعيد تأويل نفسها بما ينسجم مع الهوى، فينكشف أنَّ ما كان يُظنَّ حبًّا، لم يكن إلا حالة ظرفية.

وفي عمق هذه التجربة، يظهر عاملٌ آخر لا يقلُّ تأثيرًا: الفراغ الداخلي. ذلك الفراغ الذي يدفع الإنسان إلى التعلُّق بأيِّ حضورٍ يمنحه شعورًا بالامتلاء، ولو كان هذا الحضور غير متَّزن أو غير مستحق. فبدل أن يُبنى الحبُّ على اختيارٍ واعٍ، يُبنى على حاجةٍ ضاغطة، فيتحوَّل إلى نوعٍ من التعلُّق القَلْبِ، الذي يخشى الفقد أكثر مما يفهم حقيقة الارتباط.



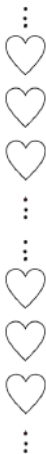


ومع تراكم هذه الحالات، تتشكّل داخل الإنسان حالة من الازدواجية؛ فهو في ظاهره يتحدّث عن الحبّ بلغة القيم، وفي باطنه يتحرّك بدوافع الرغبة. يعلن ما لا يعيشه، ويعيش ما لا يعلنه، فينشأ صراعٌ صامت بين ما يُفترض أن يكون، وما هو كائن بالفعل. وهذا الصراع، مع مرور الزمن، يُضعف صدق الإنسان مع نفسه، ويجعله أكثر قابلية للاستمرار في الوهم.

وهكذا، لا يكون الحبّ الزائف مجرّد خطأ في التعلّق، بل مساراً متكاملًا من الانحراف يبدأ بانبهارٍ بلا معرفة، ويمرّ بأنانيةٍ مقنّعة، ويتزيّن بوهم القيم، ثم ينكشف عند الاختبار، ويستقرّ في النهاية كحالةٍ من الاضطراب الداخلي.

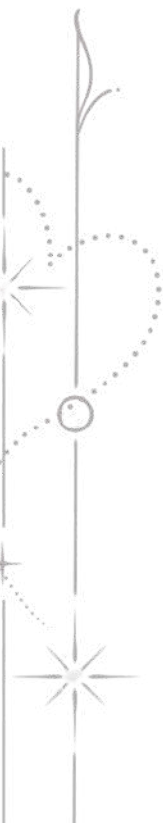
وفي مقابل هذا المسار، يظلّ الحبّ الحقيقي نداءً مختلفًا تمامًا؛ نداءً يبدأ من الوعي، ويتطهّر من الذات، ويثبت عند الامتحان، ويتّجه نحو الله سبحانه وتعالى بوصفه الغاية التي تُعيد لكلّ حبٍّ معناه الصحيح.

فحين يعود القلب إلى مركزه، ويُبصر بنور الحقّ، لا يعود الحبّ مجرّد شعورٍ يُعاش، بل يصبح طريقًا يُسلك، وميزانًا يُقاس به كلّ شيء.



الفصل السادس أمراض الحب الزائف

- الحب المصلحي في زمن الأئمة عليهم السلام وكيف
حذّروا منه.





لم يكن زمن الأئمة (عليهم السلام) زمنًا بسيطًا تُقاس فيه المواقف بظاهرها، بل كان ميدانًا شديد التعقيد، تختلط فيه الدوافع، وتتداخل فيه النيات، وتُختبر فيه القلوب قبل الأفعال. وفي خضمّ هذا المشهد، لم يكن ادّعاء الحبّ للإمام عليه السلام أمرًا نادرًا، بل كان شائعًا، لكنّ الندرة كانت في صدق هذا الحبّ وثباته.

كان كثيرون يقتربون من الإمام صلوات الله عليه وهم يحملون في ظاهرهم مشاعر التعظيم والانتماء، غير أنّ هذه المشاعر لم تكن دائمًا متجذّرة في عمق الالتزام، بل كانت في حالات غير قليلة مرتبطة بظروف معيّنة، أو بمصالح خفيّة، أو بتوقّعات دنيوية. فالإمام عليه السلام، في نظر هؤلاء، لم يكن دائمًا “حَقًّا يُتَّبَعُ”، بل أحيانًا “قوّة يُستفاد منها”، أو “رمزًا يُستثمر حضوره”.

في لحظات الاستقرار، حين لا يكون هناك ثمنٌ باهظ للانتماء، كان هذا الحبّ يظهر في أجمل صوره؛ كلمات ولاء، ومواقف تأييد، وقربٌ من مجالس الإمام عليه السلام. لكنّ الصورة كانت تتبدّل حين يتغيّر المناخ، ويُصبح الولاء موقفًا مكلفًا، أو خطرًا على المصالح الشخصية. هناك، عند مفترق الكلفة، يبدأ التمايز الحقيقي، وتتكشف البنية الداخلية لهذا الحبّ.



فإذا بالذي كان يُعلن الحبّ يتراجع خطوة، ثم أخرى، حتى يجد لنفسه موقعًا أكثر أمانًا، ولو كان ذلك على حساب الحقّ الذي كان يدّعي الانتماء إليه. وبعضهم لا يكتفي بالتراجع، بل يعيد صياغة موقفه ليُبَرِّر ابتعاده، فيلبس تخليّه لباس الحكمة، ويمنح انكفائه عنوان التعقّل، بينما هو في حقيقته انحيازٌ للمصلحة على حساب المبدأ.

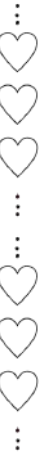
ومن هنا، كان الأئمة (عليهم السلام) يتعاملون مع مسألة الحبّ بميزانٍ دقيق، لا ينخدعون فيه بالمظاهر، ولا يكتفون فيه بالشعارات.

كانوا ينقلون الحبّ من دائرة الادّعاء إلى ميدان الاختبار، ويربطونه بالطاعة، وقيسونه بالثبات عند الشدّة، لا بالحضور عند الرخاء.

لقد أرادوا أن يفهموا الناس أنّ الحبّ الذي لا يغيّر سلوكًا، ولا يصمد أمام امتحان، ليس حبًّا يُعوّل عليه، وأنّ العلاقة بالإمام صلوات الله عليه ليست علاقة عاطفية معزولة عن الالتزام، بل هي ارتباط يفرض تبعاته على الموقف والقرار.

فالإمام عليه السلام ليس عنوانًا يُرفع، بل طريقًا يُسلك، ومنهجًا يُلتزم.





وفي هذا السياق، كان التحذير من الحبِّ المصلحي تحذيرًا من نمطٍ كامل من الشخصية؛ الشخصية التي تعيش بمنطق المكاسب، وتُقوم الأمور بميزان الربح والخسارة، لا بميزان الحقِّ والباطل.

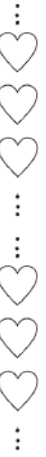
إنَّ هذه الشخصية قد تبدو قريبة في الظاهر، لكنها في لحظة الحقيقة تكون أبعد الناس؛ لأنها لم تبين علاقتها على أساسٍ ثابت، بل على أرضٍ متحرّكة.

والأخطر من ذلك كلّهُ، أنّ صاحب هذا الحبِّ قد لا يشعر بانحرافه؛ إذ إنّه لا يرى نفسه خائنًا، بل يراه متكيفًا مع الواقع، أو حريصًا على نفسه، أو متّزنًا في قراراته.

وهنا يكمن الخطر العميق: حين يُعاد تعريف الانحراف ليبدو عقلانية، ويُقدّم التراجع عن الحقِّ على أنّه حكمة.

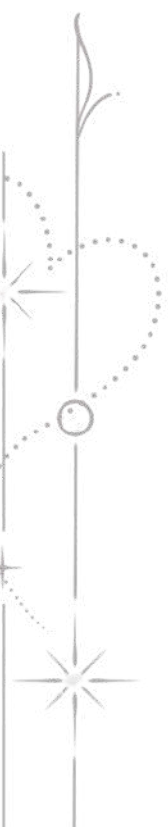
وهكذا، لم يكن تحذير الأئمة (عليهم السلام) من الحبِّ المصلحي مجرد توجيه أخلاقي، بل كان كشفًا لطبيعة مرضٍ داخلي قد يُصيب الإنسان دون أن يشعر، فيُفرغ علاقته بالإمام المعصوم عليه السلام من مضمونها، ويحوّلها من ارتباطٍ رسالي إلى علاقة ظرفية، تتبدّل بتبدّل المصالح.

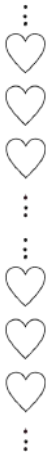




وفي مقابل هذا النموذج، كانوا يرسمون صورة الحب الحقيقي: حبٌّ لا يتغيّر بتغيّر الأحوال، ولا يضعف عند الابتلاء، حبٌّ يرى في الإمام عليه السلام حقًّا يجب أن يُتبع، لا خيارًا يمكن أن يُؤخذ ويُترك. حبٌّ يجعل الإنسان ثابتًا، لا متلوّنًا، صادقًا، لا انتهازيًا.

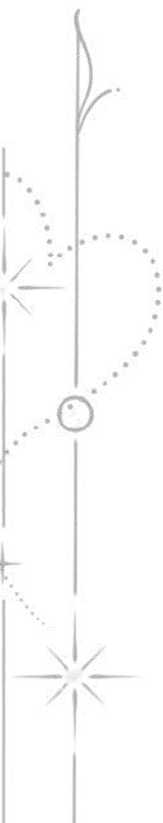
وهنا، يصبح السؤال الذي يواجهه كلّ إنسان:
هل حبّي موقفٌ أعيشه حين يوافقني، أم التزامٌ أحمله ولو خالفني؟
وفي الإجابة، يتجلّى الفارق بين حبٍّ يُنقذ، وحبٍّ يُضلّ.

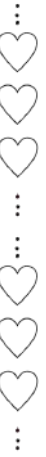




الفصل السادس أمراض الحب الزائف

- التعلق بالأشخاص دون فهم المبادئ.





يبدأ الانحراف في الحب من لحظة دقيقة لا يكاد يُلتفت إليها؛ حين ينتقل القلب دون وعي من التعلّق بالمعنى إلى التعلّق بالصورة، ومن الارتباط بالحقيقة إلى الارتباط بمظهرها.

نعم هناك، في تلك النقطة الخفية، يتبدّل المسار دون ضجيج، فيظنّ الإنسان أنّه يزداد قربًا، بينما هو في الواقع يتعد عن الجذر.

فالإنسان بطبيعته يميل إلى التجسيد، إلى أن يرى القيم في أشخاص، والمبادئ في وجوه، فيرتاح إلى الملموس أكثر من المجرد.

وهذه فطرة يمكن أن تكون مدخلًا للهداية إذا أحسن توجيهها، لكنها تتحوّل إلى مدخلٍ للانحراف حين يتوقّف الإنسان عند الشخص، ولا ينفذ منه إلى ما يمثّله.

وهكذا، يتشكّل نوعٌ من الحبّ يبدو عميقًا في ظاهره، لكنه في حقيقته سطحي؛ لأنّه لم يتجاوز حدود الصورة.

يتعلّق الإنسان بالشخص، بحضوره، بكلماته، بهيبته، دون أن يُعمل فكره في فهم الرسالة التي يحملها، أو القيم التي يجسّدها. فيصبح الشخص هو المركز، لا الحقيقة التي يدلّ عليها.

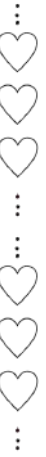


ومع مرور الزمن، تنمو هذه الحالة وتترسّخ، حتى تصبح العلاقة قائمة على حضور الشخص ذاته. فإذا حضر، حضر الاطمئنان، وإذا غاب، بدأ الاضطراب. وكأنّ الإيمان لم يُبنى على أساسٍ مستقل، بل على ظلّ ذلك الحضور. وهنا تتجلّى الهشاشة: لأنّ ما يُبنى على شخص، يتهدّد بزواله أو تغيّر صورته في الذهن.

فإذا ما غاب هذا الشخص موتًا، أو بُعدًا، أو حتى تشويهاً لصورةٍ ما يجد الإنسان نفسه في فراغٍ مفاجئ، لا لأنّ الحقيقة قد غابت، بل لأنّ ارتباطه بها لم يكن مباشرًا. فيبدأ الشكّ يتسرّب، لا إلى الشخص فحسب، بل إلى كلّ ما كان يمثّله، وقد ينقلب الحبّ إلى تردّد، أو إلى جفاء، وربما إلى رفض.

وفي هذا المشهد، لا يكون الانهيار وليد اللحظة، بل نتيجة مسارٍ طويل من التعلّق غير الواعي. فقد كان الإنسان يسير وهو يظنّ أنّه على يقين، بينما هو في الواقع كان يعتمد على دعامةٍ واحدة، فإذا سقطت، سقط معها البناء كلّهُ.

ومن هنا، كان منهج الأئمة (عليهم السلام) قائمًا على تحرير الإنسان من هذه التبعية غير الواعية، لا بإبعاده عن الأشخاص، بل بإعادة توجيه علاقته بهم. لم يريدوا قلوبًا تتعلّق بهم بوصفهم ذواتًا منفصلة عن رسالتهم، بل أرادوا عقولًا تدرك أنّهم امتدادٌ للحقّ، وأنّ الارتباط بهم إنما هو ارتباطٌ بما يحملونه من هداية.



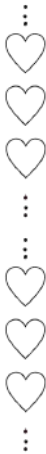
لقد كانوا يربّون أصحابهم على أن يكون الحب نافذةً إلى الفهم، لا بديلاً عنه، وأن يكون الارتباط دافعاً للوعي، لا عذراً لإلغائه. فالشخص، مهما علا قدره، يظلّ طريقاً، لا غاية؛ ودليلاً، لا مقصداً نهائياً.

لكن حين يُفقد هذا التوازن، يظهر نوعان من الانحراف: إمّا تقديسٌ غير واعٍ، يُغلق باب النقد والفهم، ويحوّل العلاقة إلى حالة من التبجيل الصامت الذي لا يسأل ولا يُفكّر؛ وإمّا انهيارٌ مفاجئ، حين تتعرّض الصورة لأيّ اهتزاز، فينقلب الإعجاب إلى رفض، لأنّ الأساس لم يكن متيناً.

وفي كلا الحالين، يكون الخلل واحداً: غياب المبدأ بوصفه المرجعية العليا. فلو كان الحب قائماً على إدراك القيم، لما تزلزل بزوال الأشخاص أو بغيابهم فقد يغيب بجسده ولكن ليس بروحه وفكره ومنهجه، ولو كان الارتباط مبنياً على وعيٍ بالحق، لما اهتزّ بتغيّر الصور وغياب المنهج والفكر.

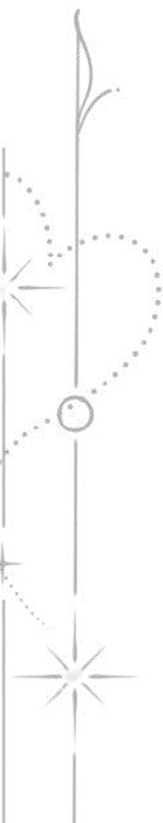
وهكذا، يتبيّن أنّ الحبّ الراسخ ليس هو الذي يُعلّق القلب بشخص، بل الذي يُعلّق القلب بما وراء الشخص؛ بما يمثّله من حقّ، وما يجسّده من قيم. هو حبّ يرى في الشخص مرآةً للحقيقة، لا حجاباً عنها، وجسراً يُعبر عليه، لا مقاماً يُتوقّف عنده.

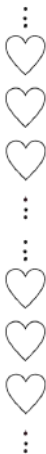




وفي نهاية هذا المسار، يبقى السؤال قائماً في عمق التجربة:
هل نحن نحبّ لأننا أبصرنا الحقيقة فيمن نحبّ، أم لأننا توقّفنا عند
صورته؟.

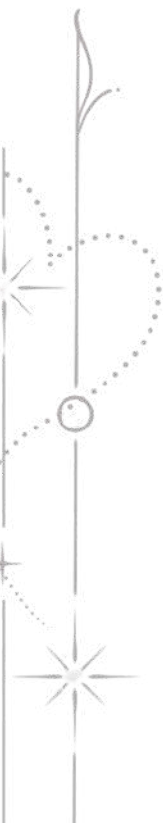
ففي هذا الفرق الدقيق، يتحدّد إن كان الحبّ طريقاً إلى النضج، أو بدايةً
لانحرافٍ صامت.

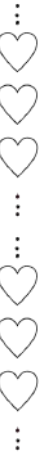




الفصل السادس أمراض الحب الزائف

- الفرق بين الحب لله سبحانه وتعالى والحب للهوى.

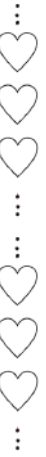




حين يتأمل الإنسان في مسار قلبه، ويُمعن النظر في تحولاته الخفية، يكشف أنّ كلّ أشكال الحبّ - على اختلاف مظاهرها - تعود في حقيقتها إلى منبعٍ واحد: إمّا أن تكون متّجهة نحو الله سبحانه وتعالى، أو مناسبةً مع الهوى. وقد لا يظهر هذا الفارق بوضوح في البدايات، لأنّ الطريقتين قد يتشابهان في اللغة، وفي الشعور، وحتى في بعض المواقف، غير أنّهما يفترقان تدريجيّاً كلّما تعمّق المسار، حتى يصل كلّ منهما إلى غايته التي تكشف حقيقته.

يبدأ الحبّ لله سبحانه وتعالى من نقطة وعي؛ من إدراكٍ داخلي بأنّ هناك ميزاناً أعلى من الرغبة، ومعيّاراً أسمى من الميل. فيتشكّل الحبّ وهو محكوم بهذا الميزان، لا يخرج عنه، ولا يلتفتّ عليه. يحبّ الإنسان، لكنّه يسأل قبل أن يندفع: هل هذا الحبّ يُقرّبني إلى الله أم يُبعدني؟ هل يُنضجني أم يُضعفني؟ هل يُنسجم مع الحقّ أم يُخاصمه؟ وهكذا، لا يكون الحبّ مجرد استجابة شعورية، بل موقفاً واعياً، يمرّ عبر بوابة الفحص قبل أن يستقرّ في القلب.

ومع هذا الوعي، تتبدّل طبيعة العلاقة؛ فلا يعود الإنسان أسير ما يشعر به، بل يصبح قادراً على توجيه مشاعره، وتهذيبها، وإعادة تشكيلها وفق ما ينسجم مع غايته الكبرى. لا يُلغي الحبّ، بل يُنقيّه؛ لا يقمع العاطفة، بل يرفعها من مستوى الانجذاب الغريزي إلى أفق الارتباط القيمي. فيغدو الحبّ طريقاً للارتقاء، لا مجرد حالة للانفعال.



في هذا السياق، يصبح الله جل وعلا هو المركز الذي تنتظم حوله سائر العلاقات. فلا يُحبّ الإنسان شيئاً إلا من خلال هذا المركز، ولا يرتبط بأحد إلا بقدر ما يقوده هذا الارتباط إلى الطاعة والحق.

وإذا تعارضت الرغبة مع هذا الميزان، كان الانحياز للحق، لا للهوى. وهنا تظهر ملامح التحرر: لأنّ الإنسان لم يعد خاضعاً لما يريد، بل لما ينبغي.

أمّا الحبّ للهوى، فإنّه يسلك مساراً مختلفاً منذ البداية، وإن بدا متشابهاً في ظاهره. فهو لا ينطلق من سؤال “ما الحق؟” بل من سؤال “ماذا أريد؟”. ومن هنا، تتشكّل العلاقة وهي متمركزة حول الذات، وإن لبست لباس القيم أو الدين. يحبّ الإنسان، لكنّه لا يخضع هذا الحبّ لمعيارٍ أعلى، بل يجعل منه هو المعيار. فما وافق شعوره قبله، وما خالفه رفضه أو أعاد تأويله.

ومع مرور الوقت، تتكشف طبيعة هذا الحبّ؛ إذ يبدأ في التلوّن وفق تغيّر الرغبات، ويتحوّل بحسب تبدّل المصالح. قد يكون قوياً في لحظة، ثم يخبو في أخرى، لا لشيءٍ إلا لأنّ الدافع لم يكن ثابتاً. فهو حبّ يستمدّ طاقته من اللذة، فإذا انقطعت، انقطع معها. ويستمدّ مبرراته من الرغبة، فإذا تغيّرت، تغيّر معها.





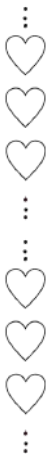
وهنا، يدخل الإنسان في حالة من التناقض؛ لأنه قد يحمل في داخله خطاباً قيميّاً، لكنه يعيش سلوكاً موجّهاً بالهوى. فيبْزِر لنفسه ما يحبّ، ويؤدّن ما لا ينسجم مع رغبته، حتى لو كان هو الحقّ. ومع تكرار هذا النمط، يضعف الميزان الداخلي، ويصبح الحكم تابعاً للميل، لا العكس.

وعند لحظة الاختبار، يظهر الفارق جليّاً. حين يُوضع الحبّ أمام كلفةٍ حقيقية، أو يُطلب منه أن يختار بين ما يشتهي وما يعتقد، يتبيّن المسار.

فالحبّ لله يزداد رسوخاً، لأنه قائم على يقينٍ يتغذى من الابتلاء، ويرى في التضحية امتداداً للصدق. أمّا الحبّ للهوى، فإنّه يتراجع، أو يبحث عن مخارج، لأنه لم يُبنَ لتحمل الكلفة، بل للتمتّع باللذة.

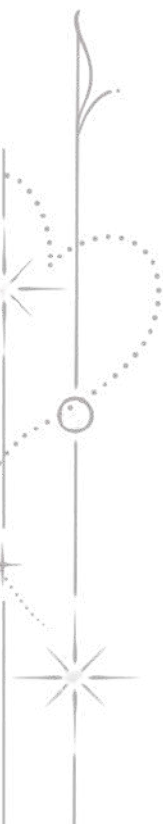
وهكذا، لا يكون الفرق بين الحبيّن فرقاً في المظهر، بل في الجذر.

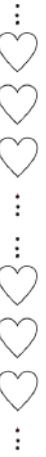
أحدهما ينطلق من الله فيعود إليه، والآخر ينطلق من النفس فيدور حولها. أحدهما يحرّر الإنسان من سطوة رغباته، والآخر يُقيّده بها. أحدهما يمنح القلب سكينَةً، لأنه مستقرّ على ميزانٍ ثابت، والآخر يورثه قلقاً، لأنه معلق بتقلّبات لا تستقرّ.



وفي نهاية المطاف، يجد الإنسان نفسه أمام حقيقة لا يمكن تجاوزها:
أنّ الحبّ ليس مجرد ما يشعر به، بل ما يختاره حين تتعارض مشاعره
مع الحقّ.

هناك، في تلك اللحظة الصامتة، يتحدّد إن كان قلبه متّجهًا إلى الله، أو
منساقًا مع الهوى.





تأمل :

حين يقطع الإنسان رحلةً طويلةً في تأمل الحب، ويغوص في طبقاته المتداخلة، لا يعود ينظر إليه بوصفه شعورًا بريئًا كما كان في بداياته، بل يراه قوةً خطيرة، يمكن أن تكون سلماً للارتقاء، كما يمكن أن تكون منحدرًا للانحراف. هناك، في نهاية هذا التأمل، تتكشف له حقيقة دقيقة: أنّ الحب لا يُقاس بحدّته، بل بوجهته، ولا بصدق الإحساس به، بل بمدى اتّصاله بالحقّ.

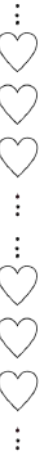
فاللحظة التي ينفصل فيها الحبّ عن الوعي، لا يعود مجرد شعورٍ ساذج، بل يتحوّل إلى أداة تضليل. لأنّ القلب إذا تحرّك دون بصيرة، قاد صاحبه إلى ما يظنّه نورًا، وهو في حقيقته سراب. يندفع، ويتعلّق، ويدافع، وهو لا يدري أنّه يسير في طريقٍ لم يُمحصّ، ولم يُختبر، ولم يُعرض على ميزانٍ يميّز بين الحقّ والباطل.

وهنا، لا يكون الخطر في الجهل وحده، بل في الجهل الذي يلبس ثوب الحبّ، فيصعب الانتباه إليه أو التحرّر منه.

ثمّ إذا انفصل الحبّ عن الإخلاص، تغيّرت طبيعته من الداخل، حتى وإن بقيت صورته كما هي في الظاهر. لم يعد ارتباطاً صافياً، بل أصبح علاقةً مشروطة، تُقاس بميزان العطاء والأخذ، وتُدار بمنطق الربح والخسارة. يحبّ الإنسان، لكنّه ينتظر مقابلاً؛ يُظهر الوفاء، لكنه يراقب المكاسب؛ يستمرّ ما دام العائد قائماً، فإذا انقطع، انكشف أنّ ما كان يُسمّى حبّاً، لم يكن إلا صورةً راقية من صور المعاملة. وهنا، يتحوّل الحبّ - دون أن يشعر صاحبه - إلى تجارةٍ خفيّة، تُدار بلغة العاطفة، لكنّها تُحسب بلغة المصلحة.

أمّا إذا انفصل الحبّ عن الله، فإنّه يفقد مركزه، ويتحوّل إلى قوّة سائبة، لا ضابط لها إلا الرغبة. هناك، لا يعود للحبّ ميزانٌ يُحتكم إليه، ولا مرجعيةٌ تُقوّمه، فينحرف مع كلّ ميل، ويتلوّن مع كلّ شهوة، وقد يلبس ألف وجهٍ ووجه، دون أن يستقرّ على صورةٍ واحدة. لأنّ ما لم يُربط بالله، يبقى أسيراً للنفس، وما لم يتّجه نحو الأعلى، يظلّ مشدوداً إلى الأسفل.

ومن هنا، لا تكون تنقية الحبّ مسألةً وجدانية عابرة، ولا مجرد محاولةٍ لتعديل المشاعر، بل هي مشروع إعادة بناء من الداخل؛ إعادة تشكيل للعلاقة بين القلب والعقل، بين الشعور والمعيّار، بين الرغبة والحقيقة. إنّها تربيةٌ تعيد للحبّ بوصلته، وترجعه إلى مركزه، وتحرّره من التشوّهات التي لحقت به.



وفي خضمّ هذا البناء، يبرز سؤالٌ واحد، لكنه كفيلاً بأن يكشف كلّ شيء: هل نحبّ لأنّ الحقّ في ذاته محبوب، فننحاز إليه ولو خالفنا، ونلتزمه ولو كلفنا، ونسير معه ولو خذلتنا الرغبات؟.

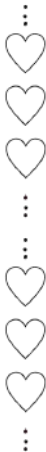
أم نحبّ لأنّ الهوى يُرضينا، فنميل حيث تميل نفوسنا، ونُعيد تشكيل القيم لتنسجم مع ما نريد، ونسمّي ذلك حبّاً لنُضفي عليه شرعيةً لا يملكها؟

إنّهُ سؤالٌ لا يُطرح على اللسان، بل على المواقف؛ لا يُجاب عنه بالكلمات، بل بالثبات عند التعارض.

وهناك، في تلك اللحظة الصامتة التي يختار فيها الإنسان بين ما يُحبّ وما هو حقّ، يتحدّد المصير الحقيقي للقلب:

إمّا أن يكون قد وُجّه نحو الله، فاستقام، وإمّا أن يكون قد تُرك للهوى، فتاه في خضمّ التناقضات الفكرية والسلوكية وهو أمر خطير جداً.





الفصل السابع تربية القلب على الحب

- تربية القلب على الحب.
- وصايا الإمام الصادق عليه السلام في تهذيب النفس.
- الأذكار والأدعية التي تفتح القلب (مثل دعاء مكارم الأخلاق).
- خدمة الآخرين كأعلى مراتب الحب.



ليست تربية القلب على الحب شأنًا عابرًا يُترك لمدِّ العاطفة وجزرها، ولا هي استجابة تلقائية لما يطرأ على النفس من مشاعر آنية، بل هي عمل تراكمي دقيق، أشبه ببناءٍ داخلي تُرصف طبقاته بوعي وصبر، حتى يستقيم في النهاية بنيان القلب على هيئةٍ قادرةٍ على حمل الحب في صفائه وثباته. فالقلب، في حقيقته، ليس معطًى نهائيًا، بل هو قابلٌ للتشكّل، سريع التأثر، يتلوّن بما يَرُدُّ عليه من خواطر، وما يعتاده من ميول، وما يُغذّي به من معانٍ. ومن هنا، فإنّ تركه دون تربية هو، في الواقع، تسليمٌ لهوى النفس أن يتصرّف فيه كيف يشاء، فينحرف الحب عن مساره، ويتحوّل من نورٍ هادٍ إلى شهوةٍ مُضلّة، أو من عطاءٍ نقيٍّ إلى تعلّقٍ مُثقل.

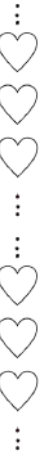
إنّ أوّل ما تقتضيه تربية القلب على الحب هو الوعي بطبيعته القابلة للانحراف بقدر قابليته للكمال؛ فكما أنّه مهيبٌ لأنّ يحمل أسمى معاني الرحمة والإيثار، فإنّه مهيبٌ كذلك لأنّ ينحدر إلى أدنى مراتب التعلّق والأنانية. وهذه الازدواجية في القابلية هي التي تجعل التربية ضرورة، لا ترفًا؛ إذ لا يمكن أن يُترك القلب لذاته ويُتَظَر منه أن يُحبّ على الوجه الصحيح. فالحبّ، إن لم يُهذَّب، تشكّل وفقًا لما تهواه النفس، لا وفقًا لما يريده الحقّ.



ومن هنا يبدأ المسار: تهذيب الداخل. وهو ليس مجرد امتناع عن بعض الرذائل، بل إعادة تشكيل عميقة لبنية النفس، بحيث يُعاد ترتيب الأولويات، وتُقوّم الدوافع، ويُضبط ميزان الرغبة. فالقلب لا يصفو ما دام مزدحمًا بالمصالح الضيقة، ولا يثبت ما دام أسيرًا للتقلّب بين الشهوات. إنّه يحتاج إلى نوعٍ من “التخلية” قبل “التحلية”؛ تخليةٍ من شوائب الكبر، والحسد، وحبّ الامتلاك، ثمّ تحليةٍ بمعاني التواضع، والرضا، والإخلاص.

وفي هذه المرحلة، يتعلّم الإنسان أن يُراقب نفسه، لا ليُثقلها باللوم، بل ليُصّرها بمواضع الخلل، ويُعيد توجيهها برفقٍ وثبات.

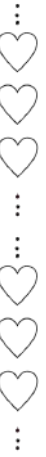
غير أنّ تهذيب النفس، على أهميّته، لا يكفي وحده لصناعة الحبّ في صورته الكاملة؛ لأنّ القلب، بعد أن يُفرّغ من شوائبه، يحتاج إلى ما يملؤه، وإلى مصدرٍ يستمدّ منه النور الذي يثبته. وهنا يأتي الارتباط بالله، لا بوصفه فكرةً ذهنيّة، بل حضورًا حيًّا يتغلغل في الوعي، ويُعيد تشكيل الإحساس بالوجود كلّهُ. فالذكر، حين يتحوّل إلى حالةٍ مستمرة، لا مجرد ألفاظ، يُنشئ في القلب نوعًا من السكينة العميقة، ويمنحه مركزًا ثابتًا يعود إليه كلّما اضطرب.



وفي هذا الارتباط، يتعلّم القلب أن يحبّ على نحوٍ مختلف؛ إذ لا يعود الحبّ فيه مجرد انجذابٍ إلى ما يُشبع، بل يصبح استجابةً لما هو حقٌّ في ذاته. فحين يتّصل القلب بالله، يتجاوز حبّه حدود الذات، ويتحرّر من ضيق المصلحة، لأنّه صار يستمدّ معاييرهِ من مصدرٍ أعلى من رغباتهِ. وهنا، يتغيّر معنى الحبّ جذريًّا: من كونه بحثًا عمّا يُرضي النفس، إلى كونه سعيًا نحو ما يُرضي الله.

لكنّ هذا التحوّل، على عمقه، لا يكتمل إلا إذا خرج من حيّز الشعور إلى حيّز الفعل. فالحبّ، إذا بقي في الداخل، مهدّدٌ دائمًا بأن يتحوّل إلى حالةٍ وجدانية لا أثر لها. ومن هنا، كان لا بدّ من دفع القلب إلى ميادين العطاء، حيث تُختبر صدقيّة ما يحمله. فخدمة الآخرين ليست مرحلةً لاحقة فحسب، بل هي جزءٌ بنيويّ من تربية القلب؛ لأنّها تُجبر الإنسان على مواجهة ذاته في أكثر صورها واقعية.

وفي ميدان الخدمة، يكشف الإنسان أنّ الحبّ ليس سهلاً كما كان يتصوّر؛ إذ يتطلّب منه أن يُقدّم، وأن يصبر، وأن يتحمّل ما لا تميل إليه نفسه دائماً. وهنا تحديداً، تتربّى الإرادة على الانسجام مع القلب، ويتحوّل الحبّ من ميلٍ داخليّ إلى التزامٍ عمليّ. فكلّ مرّةٍ يُعطي فيها الإنسان على حساب راحته، وكلّ مرّةٍ يُحسن دون انتظار مقابل، فإنّه يُعيد تثبيت الحبّ في داخله، ويمنحه جذوراً أعمق.



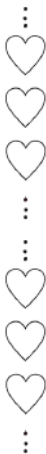
ومع تكرار هذا المسار تهديبًا، وذكّرًا، وخدمة يبدأ القلب في التشكّل على هيئةٍ جديدة؛ هيئةٍ لا يعود فيها الحبّ طارئًا، بل يصبح طبعًا راسخًا. فلا يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى جهدٍ كبير ليحبّ، لأنّ الحبّ صار جزءًا من تكوينه، يتدفّق منه كما يتدفّق النور من مصدره.

وهنا، يبلغ القلب درجةً من النضج، يرى فيها أنّ الحبّ ليس ما يشعر به حين يُعطى، بل ما يعيشه حين يُعطى، وليس ما يجده في نفسه، بل ما يتركه أثرًا في حياة الآخرين.

وهكذا، فإنّ تربية القلب على الحبّ ليست انتقالًا من حالةٍ إلى حالةٍ فحسب، بل هي تحوّلٌ في طبيعة الإنسان كلّها؛ من كائنٍ يتمحور حول ذاته، إلى كائنٍ يتّجه نحو المعنى، ومن نفسٍ تطلب الامتلاك، إلى قلبٍ يتقن البذل.

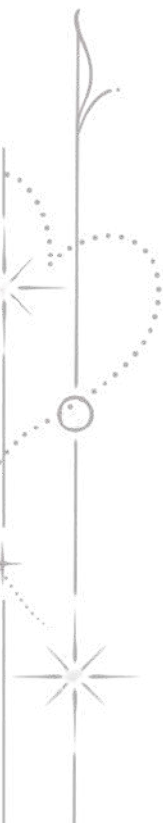
وفي هذا التحوّل، يكتشف الإنسان أنّ الحبّ، في أعظم حقيقته، ليس شعورًا يُضاف إلى حياته، بل هو الحياة حين تُعاش على وجهها الصحيح

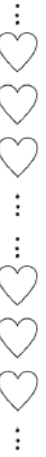




الفصل السابع تربية القلب على الحب

- وصايا الإمام الصادق عليه السلام في تهذيب النفس.





حين نقترّب من مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام)، لا ندخل إلى منظومة أخلاقية تُعنى بتعديل السلوك فحسب، بل إلى مشروع عميق لإعادة بناء الإنسان من جذوره؛ مشروع يبدأ من الداخل، من تلك النقطة التي تتشكّل فيها النية قبل الفعل، ويتحرّك فيها القلب قبل الجوارح. هناك، في العمق الذي لا تبلغه العيون، كان (عليه السلام) يضع أساس التهذيب، ويُعيد تعريف الطريق.

لم يكن يرى النفس ككيانٍ يُقمع، بل كقوّة تُفهم، وتُهدّب، وتُعاد صياغتها. فالنفس، في نظره، ليست شرّاً محضاً، ولكنّها إذا تُركت بلا ميزان، انجذبت بطبيعتها إلى ما يُشبعها، لا إلى ما يُصلحها. ومن هنا، كان التهذيب عنده ليس حرباً على النفس بقدر ما هو تحريرٌ لها من فوضاها، وإخراجٌ لها من سيطرة الدوافع الغريزية إلى أفق الإرادة الواعية.

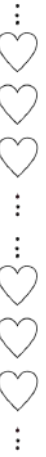
في هذا السياق، تتجلّى أولى وصاياه عليه السلام في “اليقظة الداخلية”؛ أن يعيش الإنسان حالة انتباهٍ دائم لما يجري في أعماقه. لم يكن (عليه السلام) يكتفي بأن يكون الإنسان صالحاً في ظاهره، بل كان يريد منه أن يكون صادقاً في باطنه، لأنّ الظاهر يمكن أن يُزيّن، أمّا الباطن فلا يُصلح إلا بالموالجة. كان يعلم أصحابه أن لا يثقوا بسهولة بما يشعرون به، بل أن يُخضعوا مشاعرهم للفحص: من أين جاءت؟ ولماذا نشأت؟ وإلى أين تقود؟



وهنا، تتحوّل محاسبة النفس من مجرّد عادة أخلاقية إلى حالة وعي مستمر، يُراقب فيها الإنسان تدفّق رغباته، ويُميّز بين ما هو صادرٌ عن حبٍّ صادق، وما هو متخفٍّ في صورة حبٍّ وهو في الحقيقة طلبٌ للنفس. فكم من تعلّق ظاهره النقاء، وباطنه الاحتياج، وكم من اندفاع يبدو إخلاصًا، وهو في عمقه بحثٌ عن الذات.

ثمّ تتقدّم الوصية إلى مستوى أعمق: “تفكيك جذور الرغبة”. لم يكن (عليه السلام) يركّز على قمع النتائج، بل على فهم الأسباب. لأنّ السلوك، في نظره، ليس إلا ثمرةً لما استقرّ في الداخل، فإذا أُريد إصلاحه، فلا بدّ من العودة إلى منابعه الأولى. كان يعلم أصحابه أن يسألوا: ما الذي يجعلني أميل إلى هذا؟ ما الذي يدفعني إلى ذاك؟ أهو حبٌّ للحقّ، أم انجذابٌ لما يوافق النفس؟

وفي هذا السؤال، يبدأ الانكشاف. لأنّ النفس، حين تُسأل بصدق، تنكشف حيلها، وتُفصح تبريراتها، ويظهر أنّ كثيرًا مما يُسمّى حبًّا، ليس إلا رغبةً لبست لباسًا أجمل. وهنا، لا يكون العلاج بالإنكار، بل بالتحريّر؛ تحرير القلب من هذا التداخل، حتى يعود قادرًا على التمييز بين ما يُحبّ لأنه حقّ، وما يُحبّ لأنه مُرضٍ.

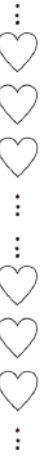


ومع استمرار هذا الجهد، يدخل الإنسان في مرحلة "التخفّف من حظوظ النفس". وهي مرحلة دقيقة، لا تعني إلغاء الرغبات، بل إعادة ترتيبها. فبدل أن تكون النفس هي المركز الذي تُقاس به الأشياء، تصبح الحقيقة هي المعيار، ويُطلب من النفس أن تتكيّف معها، لا أن تُعيد تشكيلها وفق هواها.

وهنا، يبدأ التحوّل الحقيقي: حين يتعلّم الإنسان أن يختار ما لا تشتهيه نفسه إذا كان هو الحقّ، وأن يترك ما تميل إليه إذا كان يُعبده.

هذا الاختيار المتكرّر، في مواقف صغيرة وكبيرة، يُعيد تشكيل القلب ببطء، حتى تتغيّر ميوله نفسها، لا سلوكه فقط. فيصبح ما كان ثقيلاً عليه محبوباً، وما كان مغرياً له فاقداً لبريقه.

وفي هذا المسار، لا يغفل (عليه السلام) عن البُعد الزمني في التهذيب؛ فهو لا يُقدّم كتحوّل لحظي، بل كرحلة طويلة، تحتاج إلى صبرٍ، وإلى تكرار، وإلى تحمّل انتكاسات الطريق. فالنفس لا تتغيّر بقرار، بل بتراكم، والقلب لا ينقلب دفعةً واحدة، بل ينضج تدريجياً، مع كلّ مواجهة صادقة، ومع كلّ اختيارٍ يُقدّم فيه الحقّ على الرغبة.

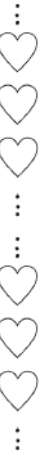


ومن خلال هذا التدرّج، يبدأ الإنسان باكتشاف وجهٍ آخر للحبّ؛ حبّ لا يولد من الانجذاب، بل من التزكية. حبّ لا تفرضه اللحظة، بل يصنعه الطريق. وكلّما خفّت شوائب النفس، وهدأت ضجّتها، انكشف هذا الحبّ في صورته النقيّة، لا كحالة عاطفية، بل كاتجاهٍ وجودي، يُحدّد مسار الحياة كلّها.

وهنا، تتجلّى الغاية التي أرادها الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): أن يصل الإنسان إلى قلبٍ لا يحبّ إلا ما كان لله، ولا يميل إلا لما يقوده إليه، قلبٍ تحرّر من الالتباس، ومن ازدواجية الدوافع، ومن تلوّن المشاعر. قلبٍ صار الحبّ فيه امتدادًا للحقّ، لا بديلاً عنه.

وعند هذه النقطة، لا يعود تهذيب النفس مجرد وسيلة لضبط السلوك، بل يصبح طريقاً لتخليص الحبّ نفسه؛ لأنّ الحبّ، في نهاية المطاف، ليس ما نشعر به حين نُترك لأنفسنا، بل ما نصل إليه حين ننتصر عليها.





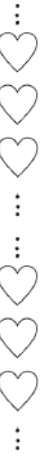
حين نتأمل في مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)، لا نجد حديثاً عن تهذيب النفس بوصفه ترفاً روحياً أو حالةً مثاليةً تُطلب في أزمنة الفراغ، بل نجده يضعه في صميم المشروع الإنسانيّ، باعتباره الأساس الذي تُبنى عليه سائر القيم، ومنه ينطلق كلّ سلوكٍ صادق.

فالنفس، في رؤيته، ليست كياناً ساكناً، بل ساحة صراعٍ دائم بين داعي الحقّ وداعي الهوى، ولا يمكن للقلب أن يستقيم في حركته نحو الله سبحانه وتعالى ما لم يُحسم هذا الصراع لصالح التزكية.

إنّ أولى وصاياه صلوات الله عليه التي تتكرّر في مضامين كلماته هي ضرورة المراقبة؛ أن يعيش الإنسان حالة حضورٍ دائم مع نفسه، لا يترك خواطره تمرّ دون فحص، ولا يسمح لدوافعه أن تتشكّل في الخفاء. فالمشكلة، في عمقها، ليست في الفعل الظاهر بقدر ما هي في البذرة التي تُنبّت ذلك الفعل.

ومن هنا، فإنّ تهذيب النفس يبدأ من الداخل قبل الخارج، من النية قبل العمل، لأنّ فساد النية يُفسد العمل وإن بدا في ظاهره صالحاً، أمّا صلاحها فيمنح الفعل روحاً تتجاوز صورته.





ثم إنَّ الإمام (عليه السلام) يلفت إلى خطر الرذائل الخفيّة التي قد لا يلتفت إليها الإنسان بسهولة، كالكبر الذي يتسلّل في ثنايا الشعور بالتفوّق، أو الحسد الذي يتخفّى خلف المقارنة، أو حبّ الدنيا الذي يتلوّن بأشكالٍ مقبولة في ظاهرها.

وهذه الأمراض ليست عوارض سطحية، بل جذورٌ عميقة إذا لم تُقتلع، شوّهت كلّ ما ينبني عليها، حتى الحبّ نفسه؛ إذ يتحوّل، في ظلّها، إلى امتلاكٍ لا إلى عطاء، وإلى رغبةٍ في الاستحواذ لا إلى رغبةٍ في الإحسان.

ومن أعمق ما يُستفاد من وصاياه (عليه السلام) أنّ التهذيب ليس قمعاً للنفس، بل توجيئةً لها؛ فهو لا يدعو إلى إلغاء الرغبات، بل إلى تهذيبها، ولا إلى إخماد المشاعر، بل إلى تصحيح وجهتها. فالنفس، إذا تُركت بلا ضابط، قادت صاحبها إلى التشتّت، أمّا إذا رُبّيت على الاعتدال، أصبحت طاقةً فاعلةً في طريق الكمال.

وهنا، يتجلّى الفارق بين من يُجاهد نفسه ليحرمها، ومن يُجاهدها ليحرّرها من سلطان ما يُفسدها.



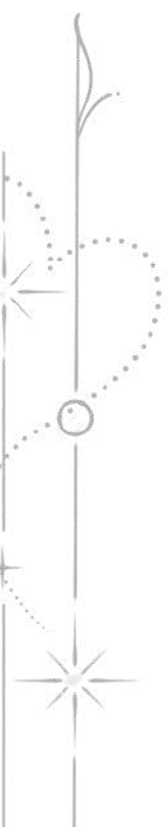
وفي هذا السياق، يأخذ جهاد النفس بعدًا أعمق من مجرد مقاومة المعصية؛ إذ يصبح عملية إعادة بناءٍ مستمرة، يُعيد فيها الإنسان تشكيل علاقته بذاته، فيتعلم أن يميّز بين ما يريده لأنّه يريده، وما ينبغي أن يريده لأنّه حقّ. وهذه النقطة في الوعي هي التي تفتح باب الإخلاص؛ لأنّ الإنسان حينها لا يعود أسير رغباته، بل يصبح قادرًا على اختيار ما ينسجم مع القيم التي يؤمن بها.

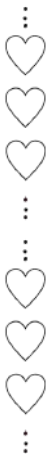
ومن هنا نفهم لماذا يؤكّد الإمام الصادق (عليه السلام)، في مضامين تعاليمه، أنّ الحبّ الحقيقي لا يمكن أن ينبت في نفسٍ مضطربة؛ لأنّ الاضطراب يخلق تناقضًا داخليًا، يجعل الإنسان يتقلّب بين مشاعر متعارضة، فلا يثبت على معنى، ولا يخلص في اتجاه. أمّا النفس المصفّاة، فإنّها تمنح الحبّ بيئةً صالحة للنموّ، فيخرج منها نقيًا، غير ملوّثٍ بالمصلحة، ولا مشوبٍ بالهوى.

وفي ضوء ذلك، يتّضح أنّ جهاد النفس عند الإمام (عليه السلام) ليس غايةً قائمة بذاتها، بل هو طريقٌ لفتح القلب على المعنى الأعلى للحبّ؛ ذلك الحبّ الذي يقوم على الإخلاص، ويتحرّك في مدار الحقّ، لا في مدار اللذة. فكلّما تهذّبت النفس، ازداد القلب قدرةً على التجردّ، وكلّما تجرّد، اقترب من الحبّ في صورته الأصفى، حيث لا يكون العطاء مشروطًا، ولا يكون الودّ تابعًا للمصلحة.



وهكذا، فإنّ وصاياه (عليه السلام) في تهذيب النفس لا تُنتج إنساناً زاهداً في الحياة فحسب، بل تُنتج قلباً قادراً على أن يحبّ كما ينبغي؛ حباً متوازناً، صادقاً، مستقراً، لا تزعزعه التقلبات، ولا تغيّره الظروف، لأنّه لم يُبْنَ على الانفعال، بل على وعي عميق، وجهادٍ مستمر، وإخلاصٍ يتجدّد في كلّ لحظة.





الفصل السابع تربية القلب على الحب

- الأذكار والأدعية التي تفتح القلب (مثل دعاء مكارم الأخلاق).



ليس القلب مجرّد وعاءٍ يستقبل ما يُلقى فيه دون أثر، بل هو كيانٌ حيّ، سريع التأثر، دائم التشكل، يتلوّن بما يُعدّى به، ويأخذ صورته من طبيعة ما يتكرّر عليه. ولهذا، لم تكن الأذكار والأدعية في تراث أهل البيت (عليهم السلام) مجرّد طقوس لفظية تُؤدّى، بل كانت أدواتٍ دقيقة لإعادة تشكيل الباطن، وبناء الحسن الداخلي على نحوٍ يُعيد ترتيب علاقة الإنسان بنفسه وبربه.

فالإنسان، في حياته اليومية، يعيش تحت ضغطٍ مستمر من الأصوات الداخلية: رغبات، مخاوف، تصوّرات، ذكريات، وتراكمات لا تنقطع. وهذه الضوضاء، إن تُركت دون تهذيب، تُعتم القلب، وتُربك بوصلته، حتى يصبح عاجزاً عن التمييز بين ما ينبغي أن يُحبّ، وما يفرض نفسه عليه. وهنا، يأتي الذكر لا ليضيف صوتاً جديداً فحسب، بل ليُعيد تنظيم هذا الداخل، ويدخل فيه نغمةً مختلفة، نغمةٌ تنتمي إلى عالم الصفاء، لا إلى فوضى النفس.

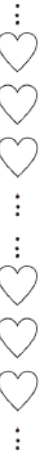
وحين نقف عند دعاء مكارم الأخلاق، فإننا لا نقف أمام نصٍّ دعائيٍّ تقليدي، بل أمام مشروع تربويٍّ متكامل، يُخاطب الإنسان من حيث لا يشعر، ويُعيد بناءه من الداخل وهو يظنّ أنّه فقط يدعو. إنّ هذا الدعاء لا يُعلّم الإنسان كيف يطلب بقدر ما يُعلّمه ماذا يطلب، وهذه نقطة فارقة؛ لأنّ انحراف القلب لا يبدأ من طريقة التعبير، بل من طبيعة المطلوب.



فالإنسان، بطبيعته، يميل إلى طلب ما يُشبعه، ما يريحه، ما يُحقِّق له حضورًا أو مكانة أو أمانًا، لكنَّ هذا الدعاء يأخذه بلطفٍ إلى مستوى آخر من الطلب؛ إلى أن يطلب الصفاء بدل اللدَّة، والثبات بدل الثقلب، والإخلاص بدل الظهور. وهنا، تبدأ عملية إعادة التشكيل: حين يتعوَّد القلب أن يطلب ما لم يكن يخطر له، وأن يُقدِّم ما كان يؤخِّره، وأن يرى الكمال في ما كان يراه ثقیلاً.

ومع تكرار هذه المضامين، لا تبقى مجرد كلمات تُقال، بل تتحوَّل إلى معايير تُقاس بها النفس. فيبدأ الإنسان — دون أن يشعر — بمراجعة ذاته على ضوء ما يدعو به: هل أنا كما أطلب؟ هل أعيش ما أتمنِّي؟ هل تحرَّكي في الحياة ينسجم مع هذه القيم التي أرفعها بلساني؟ وهنا، يتحوَّل الدعاء من طلبٍ إلى مرآة، يرى فيها الإنسان نفسه بوضوحٍ أكبر.

الأذكار، في هذا السياق، تقوم بوظيفة “التنظيف الداخلي” على مستوى أعمق مما يُتصوَّر. فهي لا تُزِيل الذنوب بمعناها السلوكي فقط، بل تُخفِّف من تراكمات الغفلة، ومن ثَقُل الانشغال بالدنيا، ومن هيمنة الصوت النفسي الذي يُعيد الإنسان دائماً إلى ذاته. ومع كلِّ ذكرٍ يُقال بوعي، تنزاح طبقةٌ من هذا التراكم، ويُفتح في القلب منفذٌ صغير للنور.



ومع الاستمرار، يتغيّر شيء أدقّ: تتحوّل العلاقة مع الذكر نفسه. في البداية، يكون الذكر فعلاً يُؤدّي، يحتاج إلى تذكير وإرادة، ثم يصبح عادةً خفيفة، ثم يتحوّل إلى حالةٍ من الحضور، يشعر فيها الإنسان بأنّ قلبه متّصل، حتى وهو في خضمّ الحياة. ومع مزيدٍ من النضج، يتحوّل الذكر إلى ميلٍ داخلي، إلى رغبةٍ تلقائيةٍ في العودة إلى الله، لا لأنّ هناك واجباً، بل لأنّ القلب وجد في هذا الذكر راحته.

وهنا، يبدأ الحبّ بالتحوّل. لم يعد حبّاً ينشأ من الخارج، من موقفٍ أو شخصٍ أو حدث، بل صار ينبع من الداخل، من حالة القرب، من الشعور بالاتصال بالمصدر الأعلى. فيخفّ تعلّق القلب بما سواه، لا قهراً، بل لأنّه وجد ما هو أعمق وأبقى.

وهكذا، يصبح الدعاء — في صورته الحقيقية — مدرسةً لتربية الحبّ. لأنّه لا يكتفي بتوجيه السلوك، بل يُعيد صياغة الذوق الروحي نفسه؛ يجعل الإنسان يُحبّ ما كان يمرّ عليه مروراً عابراً، ويزهد فيما كان يظنّه غاية. ينقله من ضيق الذات، حيث كلّ شيء يُقاس بما يخصّه، إلى سعة القرب الإلهي، حيث تتبدّل المقاييس، وتُعاد صياغة المعاني.

وفي هذا الأفق، لا يعود الذكر مجرد وسيلة، بل يصبح طريقاً، ولا يبقى الدعاء طلباً، بل يتحوّل إلى لقاء؛ لقاءٍ يتشكّل فيه القلب من جديد، ويُعاد فيه توجيه الحبّ نحو ما يستحق أن يُحبّ.



إذا كان تهذيب النفس أشبه بتهيئة الأرض وتنقيتها من الشوائب، نقول مجاراً أن الذكر والدعاء هما المطر الذي يهبها الحياة، والنسيم الذي يُنعشها بعد جفاف. فالقلب، مهما اجتهد صاحبه في إصلاحه وتقويم اعوجاجه، يظلّ محدود القدرة، محاطاً بضعفه الإنساني، عرضةً للفتور بعد العزم، وللغفلة بعد اليقظة. ومن هنا، كانت حاجته إلى مددٍ يتجاوز جهده، وإلى عطاءٍ إلهيٍّ يعيد إليه توازنه كلّما اختلّ، ويُجدّد فيه الحياة كلّما خبا.

إنّ الذكر، في حقيقته، ليس تكرار ألفاظٍ بقدر ما هو استحضار حضور؛ حضور الله سبحانه وتعالى في القلب، بحيث لا يكون غائباً عن وعي الإنسان وهو يعيش تفاصيل يومه. فحين يذكر الإنسان ربّه، لا يضيف إلى حياته شيئاً خارجاً عنها، بل يُعيد ترتيبها من الداخل، فيُخرجها من التشتّت إلى المركز، ومن القلق إلى السكينة، ومن الغفلة إلى اليقظة. وهنا، يتحوّل الذكر من ممارسةٍ لسانية إلى حالةٍ وجودية، يصبح فيها القلب متصلاً بمصدر الطمأنينة، لا ينفصل عنه إلا بقدر ما يغفل.

وفي هذا الإطار، تأتي الأدعية لتؤدّي دوراً أعمق من مجرد الطلب؛ إذ هي نصوصٌ تربوية تُعيد تشكيل وعي الإنسان بنفسه وبربّه وبالعالم من حوله. فهي لا تقتصر على أن تعلّم الإنسان ماذا يريد، بل تعلّمه كيف يريد، وعلى أيّ أساسٍ يطلب. ومن هنا، فإنّ الدعاء الصادق لا يكفي بأن يرفع الحاجة إلى الله، بل يرفع الإنسان نفسه إلى مستوى الحاجة الحقيقية.



ولعلّ من أصفى النماذج في هذا الباب دعاء مكارم الأخلاق، حيث لا يطلب الداعي فيه مظاهر الخير السطحية، بل يسأل الله أن يحدث في داخله تحوّلًا حقيقيًا، أن يلبسه صفاتٍ تصبح جزءًا من كيانه: صبرًا يثبت عند الابتلاء، وحِلْمًا يكبح اندفاع الغضب، ورحمةً تتدفّق في التعامل مع الآخرين، وتواضعًا يقيه آفة التعالي.

إنّ دعاء لا يُنشد العاطفة، بل يُنشد التغيير، ولا يكتفي بالشعور، بل يسعى إلى بناء الإنسان.

ومن خلال هذا النمط من الدعاء، يتعلّم القلب أنّ الحبّ ليس حالةً تُطلب مباشرة، بل ثمرةٌ تنمو حين تتوفّر شروطها.

فكلّ خلقٍ كريم يُزرع في النفس، هو في الحقيقة توسيعٌ لدائرة الحبّ، وكلّ رذيلةٍ تُزال، هي إزالةٌ لحاجزٍ كان يحجب هذا الحبّ عن الظهور.

وهكذا، يصبح الدعاء أداةً لصناعة الحبّ من حيث لا يبدو ذلك ظاهرًا؛ لأنّه يُعيد تشكيل البنية التي يقوم عليها.

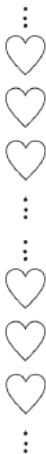




ثم إنّ المداومة على الذكر تُحدث في القلب تحوُّلاً تدريجيّاً، لا يُدرك دفعةً واحدة، ولكنّه يتراكم حتى يصير حالةً راسخة. فالقلب في بداياته قد يتثاقل، وقد يغفل، وقد لا يشعر بالأثر المباشر، لكنّه مع الاستمرار يبدأ في التلّين بعد قسوة، وفي الانشراح بعد ضيق، وفي الاستقرار بعد اضطراب. وهنا، لا يعود الذكر مجرد وسيلة، بل يصبح بيئةً يعيش فيها القلب، ومناخاً يتنفس فيه الحبّ.

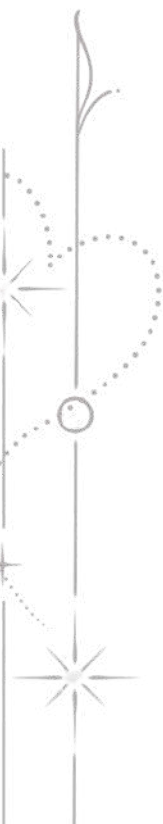
ومع هذا التحوّل، يتبدّل موقع الحبّ في النفس؛ إذ ينتقل من كونه شعوراً عارضاً يتأثر بالظروف، إلى كونه حالةً مستقرة تستمدّ ثباتها من اتصالها بالمصدر الذي لا يتغيّر. فالحبّ الذي يتغذى من الذكر لا ينقطع بانقطاع الأسباب، ولا يضعف بتقلّب الأحوال، لأنّه لم يعد قائماً على ما في الخارج، بل على ما في الداخل من صلةٍ بالله.

وهكذا، يتبيّن أنّ الأذكار والأدعية ليست زينةً روحيةً تُضاف إلى حياة الإنسان، بل هي من صميم تربية القلب على الحبّ؛ إذ بها يُغذى، وبها يثبت، وبها يتطهّر من آثار الغفلة. ومن خلالها، يتعلّم الإنسان أنّ الطريق إلى الحبّ ليس في طلبه مباشرة، بل في تعميق الصلة بالله، لأنّ القلب إذا امتلأ به، امتلأ بكلّ ما سواه من معاني الرحمة، والصفاء، والعطاء.



الفصل السابع تربية القلب على الحب

• خدمة الآخرين كأعلى مراتب الحب.





حين يبلغ الحب غايته في النضج، يتجاوز كونه إحساسًا داخليًا يتوهج في أعماق النفس، ليغدو حركةً في الخارج، وسلوكًا يتجسد في الواقع. فالحبّ في بداياته قد يكون انجذابًا، أو تعاطفًا، أو حتى شوقًا خفيًا، لكنّه في ذروته يتحوّل إلى مسؤولية، وإلى التزامٍ أخلاقيّ لا يهدأ.

ومن هنا، لا تعود خدمة الآخرين مجرد خيارٍ من خيارات الفضيلة، بل تصبح التعبير الأكثر صدقًا عن اكتمال الحبّ، لأنها اللحظة التي يخرج فيها الإنسان من ضيق الشعور إلى سعة الفعل.

إنّ الذي يحبّ بحق، لا يستطيع أن يبقى متفرّجًا على آلام الآخرين، ولا يرضى أن يحتفظ بمشاعره في دائرة الصمت. فالحبّ الصادق بطبيعته دافع، يحرك الإرادة، ويستنهض الهمة، ويجعل الإنسان في حالة بحثٍ دائمٍ عن مواضع النفع، كأنّ قلبه لم يُخلق إلا ليكون جسرًا تعبر عليه حاجات الآخرين إلى التيسير.

ومن هنا، فإنّ الخدمة ليست ترفًا أخلاقيًا، بل ضرورة وجودية للحبّ نفسه؛ إذ لو لم يُترجم الحبّ إلى عطاء، لانطفأ في داخله، أو تحوّل إلى وهمٍ عاطفيّ لا أثر له في العالم.





وخدمة الآخرين في حقيقتها ليست إعطاءً من الفائض فحسب، بل هي اقتطاعٌ من الذات، ومجاهدةٌ للنفس، وتقديمٌ لما قد يحتاجه الإنسان لنفسه قبل غيره. فالذي يخدم، لا يقدم المال فقط، بل يقدم وقته، وراحته، واهتمامه، بل يقدم حضوره الإنسانيّ بكلّ ما فيه من إصغاء واحتواء.

وهنا تحديداً تتجلى عظمة الحبّ، لأنّ العطاء حين يكون من الحاجة، لا من السعة، يكشف عن صدق النية، وعمق الإخلاص.

ومن زاوية أعمق، فإنّ خدمة الآخرين تُعيد تشكيل مركز الإنسان الداخلي؛ إذ تخرجه من دائرة التمرکز حول الذات، حيث الأنا هي المحور، إلى دائرة الامتداد، حيث يصبح الآخر جزءاً من الوعي، لا غريباً عنه. وفي هذا التحوّل، ينكسر الحاجز الوهميّ بين "أنا" و"غيري"، ويبدأ القلب في إدراك وحدة المعنى الإنسانيّ، فيرى في نفع الآخرين امتداداً لنفعه، وفي سعادتهم انعكاساً لسلامه الداخلي.

وهكذا، لا تعود الخدمة تضحيةً مؤلمة، بل تصبح لوناً من ألوان الاكتمال الروحي.

ولعلّ السرّ في كون الخدمة أعلى مراتب الحبّ، أنّها تُدخل الإنسان في أفق الرسالية؛ إذ يتحوّل الحبّ من حالة فردية إلى مشروع عام، ومن تجربة شعورية إلى أثرٍ ممتدّ في الحياة. فالإنسان الذي يخدم، لا يعيش لنفسه فقط، بل يسهم في عمارة الأرض، ويشارك في تخفيف معاناة العالم، ولو بقدرٍ يسير. وهذا البعد الرساليّ يمنح الحبّ معنى الخلود، لأنّ أثره لا ينتهي بانتهاء الشعور، بل يبقى جاريًا في حياة الآخرين.

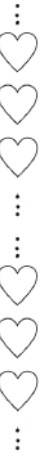
وفي هذا المقام، يتعلّم القلب درسًا بالغ العمق: أنّ الحبّ الحقيقي لا يُقاس بما يأخذه الإنسان، بل بما يمنحه، ولا يُعرف بفيض العاطفة، بل بصدق البذل. فكم من مشاعر بدت عارمة، ولكنها لم تغيّر واقعًا، ولم تُسعف محتاجًا، فظلت حبيسة النفس. وكم من عملٍ صغيرٍ في ظاهره، لكنّه خرج من قلبٍ صادق، فكان أبلغ في التعبير عن الحبّ من آلاف الكلمات.

ثمّ إنّ العلاقة بين خدمة الآخرين والقرب من الله علاقة جوهرية؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يُراد لذاته بمعزلٍ عن خلقه، بل يُتقرب إليه بخدمتهم، والإحسان إليهم، ورعاية شؤونهم. فكلّما اتّسعت دائرة العطاء في حياة الإنسان، اتّسع قلبه لتجليات الرحمة الإلهية، وكلّما خفّف عن غيره، خفّف الله عنه، وكلّما خرج من ذاته، أدخله الله في معاني القرب. ومن هنا، يصبح الحبّ طريقًا إلى الله، ولكن ليس من بوابة الشعور، بل من باب الخدمة.



وهكذا، يتبيّن أنّ خدمة الآخرين ليست مجرد أثرٍ من آثار الحبّ، بل هي قَمَّتُه التي عندها يكتمل، ومرآته التي فيها يصدق.

فمن أراد أن يعرف مقدار ما في قلبه من حبّ، فلينظر: كم من إنسانٍ انتفع به؟ وكم من ألمٍ خَفّفه؟ وكم من حاجةٍ قضاها؟ فهناك، في ساحات الخدمة، لا في أعماق الشعور وحدها، يُقاس الحبّ، وتُعرف حقيقته.



حين يُصَقِّل القلب بتهذيبٍ صادق، ويتشَبَّع بروح الذكر، لا يبقى الحبّ فيه حالةً كامنة تنتظر ظرفاً لتظهر، بل يتحوّل إلى طاقةٍ دافعة تبحث عن مجراها في الواقع.

وهنا تحديداً يبدأ الامتحان الحقيقي: هل يظلّ الحبّ فكرةً نبيلة تُحسّن في الداخل، أم يتحوّل إلى أثرٍ ملموس يلمسه الآخرون؟ ومن هذا الموضع تنكشف خدمة الآخرين بوصفها الذروة التي يبلغها الحبّ حين يكتمل؛ لأنّها اللحظة التي يخرج فيها من حيّز المعنى إلى حيّز الفعل.

إنّ خدمة الناس، في عمقها، ليست مجرد استجابةٍ لأمرٍ أخلاقيّ، ولا أداءً لواجبٍ اجتماعيّ، ولا يسعى متجرداً لكسب الثواب، بل هي تعبيرٌ عن تحوّلٍ داخليّ عميق؛ إذ لم يعد الإنسان فيها مركزاً لذاته، بل صار جسراً يمرّ عبره الخير إلى غيره. فالحبّ، حين يصدق، يغيّر موقع الإنسان من العالم: من كونه طالباً دائماً إلى كونه مُعطيّاً، ومن كونه مشغولاً بما ينقصه إلى كونه منشغلاً بما يمكن أن يقدمه.

وهذا التحوّل لا يتمّ بسهولة، لأنّه يتطلّب مجاهدةً خفيةً، يُقدّم فيها الإنسان جزءاً من راحته، ويقتطع من وقته، ويُسخر طاقته فيما لا يعود عليه مباشرةً.

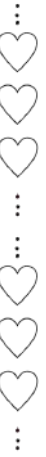


ومن هنا، فإنَّ الخدمة تكشف صدقيّة الحبِّ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر؛ لأنَّها تضعه في مواجهة الكلفة. فالحبُّ الذي لا يكلف صاحبه شيئاً، يبقى في دائرة الادّعاء، أمّا الحبُّ الذي يتحمَّل من أجله الإنسان التعب، ويصبر على تبعات العطاء، فإنَّه حبٌّ متجدِّد في أعماقه. وفي هذه اللحظة، يتبيّن الفرق الجوهريّ بين حبٍّ يُقال بالكلمات، فيبقى جميلاً في صورته، وبين حبٍّ يُعاش بالفعل، فيصبح فاعلاً في أثره.

غير أنّ ما يبدو للوهلة الأولى تضحيةً، يكشف مع الزمن عن حقيقةٍ أعمق؛ وهي أنّ الخدمة لا تُنقص الإنسان كما قد يتصوّر، بل تُعيد تشكيله على نحوٍ أوسع. فكلّما خرج من ذاته، اتَّسع قلبه، وكلّما حمل همَّ غيره، خفَّ عنه ثقل نفسه، وكأنَّ في العطاء سرّاً خفياً يُحرِّر الإنسان من ضيق أنانيّته. ومن هنا، تتحوّل الخدمة من عبٍّ إلى لذّةٍ روحيّة، لا بمعنى اللذّة العابرة، بل بمعنى الامتلاء الهادئ الذي يشعر فيه الإنسان أنّه في موضعه الصحيح من الوجود.

وفي هذا السياق، يكتشف القلب أنّ الحبَّ ليس حركةً في اتجاهٍ واحد، بل هو دورةٌ متكاملة: يبدأ من الداخل صفاءً، ويصعد إلى الأعلى ذكراً، ثم يعود لينزل رحمةً في الخارج خدمةً. فكلّما خدم الإنسان، عاد إلى نفسه أكثر صفاءً، وكلّما ازداد صفاءً، ازداد حضوراً في ذكر الله، وكلّما تعمّق ذكره، تجدد فيه الدافع إلى العطاء. وهكذا، يدخل في حركةٍ دائبة لا تنقطع، يتغذّى فيها الحبُّ من ذاته، ويُعيد إنتاج نفسه باستمرار.





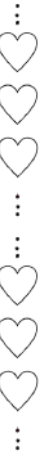
ومع ترسّخ هذه الحالة، لا يعود الإنسان ينظر إلى خدمة الآخرين بوصفها عملاً زائداً عن حياته، بل يراها جزءاً من هويّته، ومساراً طبيعياً لتعبيره عن إيمانه وحبّه.

فلا يحتاج إلى دافع خارجيّ ليحسن، ولا ينتظر مقابلًا ليُعطي، لأنّ العطاء صار لغة قلبه، وطريقه إلى التوازن الداخليّ.

وهنا تتجلّى الصورة الكاملة لتربية القلب على الحب: ليست انتظاراً لشعورٍ يأتي، بل بناءً لمسارٍ يُسلك.

يبدأ بإصلاح النفس حتى تُرفع الحواجز، ثمّ بتعميق الصلة بالله حتى يُملأ القلب نوراً، وينتهي بخدمة الخلق حتى يتحوّل هذا النور إلى أثر. وفي هذا التوازن الدقيق، يولد الحبّ في صورته الصحيحة: حبٌّ لا يدور حول الذات، ولا يتلوّن بالمصلحة، بل يتّجه في صفائه نحو الله، ويجد معناه الأصدق في أن يكون رحمةً جاريةً في حياة الآخرين.





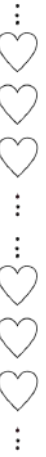
تأمل:

ليس هذا التكامل بين تهذيب النفس، وذكر الله سبحانه وتعالى، وخدمة الخلق مجرد تراكبٍ لفضائل متفرقة، بل هو خيطٌ جامعٌ تنتظم فيه حقيقة الحب في أصفى صورها. فكلّ مسارٍ من هذه المسارات، وإن بدا قائماً بذاته، إنّما يكمل الآخر، ويصحّحه، ويمنحه معناه الأعمق؛ إذ لا يكتمل تهذيب النفس إن لم يُثمر حضوراً في ذكر الله جل وعلا، ولا يصدق الذكر إن لم يتحوّل إلى خدمةٍ للخلق، ولا تكون الخدمة نقيّةً إن لم تتبع من نفسٍ مهذّبةٍ متصلةٍ بالله.

إنّ تهذيب النفس هو البداية التي تُنقي الداخل من شوائب الهوى، وتحرّر القلب من استبداد الرغبات، فيصبح مستعدّاً لتلقّي المعنى، لا أسيراً للشهوة أو الانفعال. فإذا صفا هذا الداخل، جاء ذكر الله سبحانه وتعالى ليملأه حضوراً، فيتحوّل القلب من فراغٍ مقلقٍ إلى سكينَةٍ عامرة، ومن تشبّت إلى مركزٍ ثابتٍ يستمدّ منه الإنسان توازنه.

ثم تأتي خدمة الخلق بوصفها الامتحان الحقيقي لهذا الصفاء، إذ تُخرج ما في القلب من نورٍ إلى واقع الناس، فتُترجم الذكر إلى أثر، وتُجسّد التهذيب في سلوك.





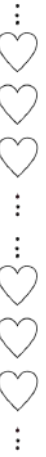
وهنا تحديداً يتجلى الخيط الجامع: أنّ هذه المسارات ليست دوائر منفصلة، بل حركة واحدة تبدأ من الداخل، وتصعد إلى الأعلى، ثم تعود لتنزل رحمةً في الخارج.

فالنفس تُهذَّب لتتَهَيَّأ، والقلب يذكر ليتّصل، والإنسان يخدم ليُفيض. وفي هذا الدوران المستمرّ، يُعاد تشكيل القلب مرّةً بعد مرّة، حتى يغدو الحبّ فيه حالةً راسخة، لا طارئة، وموفقاً وجودياً، لا انفعالاً عابراً.

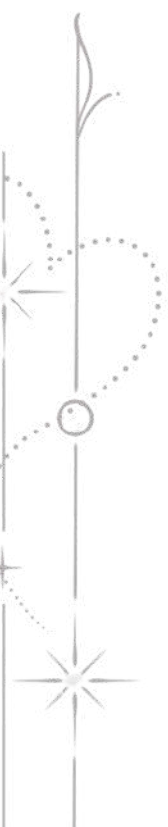
وحين تكتمل هذه الحركة، لا يعود الحبّ مجرد إحساسٍ يُعاش، بل يصبح ميزاناً يُقاس به كلّ شيء؛ إذ يتحرّر من سلطان الرغبة التي تشدّه إلى ما يُشبع النفس، ومن تأثير المصلحة التي توجّهه إلى ما يعود بالنفع الخاص، ليصير متّجهاً في صفائه نحو الله وحده.

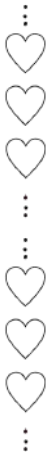
وهنا، لا يعني الحبّ أن يأخذ الإنسان ممّا يحبّ، بل أن يتخلّى عمّا يشغله عن محبّوبه، وأن يكون في كلّ عطائه، وفي كلّ حضوره، وفي كلّ اختياره، سائراً في اتجاهٍ واحد: اتجاه القرب.





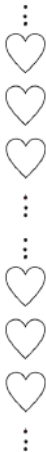
إنَّه تحوُّلٌ عميقٌ في بنية القلب؛ من حبٍّ مشروطٍ باللذة، إلى حبٍّ مشروطٍ بالحقِّ، ومن تعلّقٍ بما يُرضي النفس، إلى تعلّقٍ بما يُرضي الله سبحانه وتعالى. وفي هذا المقام، لا يعود الإنسان يسأل: ماذا وجدتُ من الحبِّ؟ بل ماذا قدّمتُ له؟ ولا ينشغل بما يشعر به في داخله، بقدر ما ينشغل بما يصدر عنه في فعله. لأنَّه أدرك أنَّ الحبَّ، في حقيقته، ليس ما يُقال، ولا ما يُحسّ، بل ما يُعاش طريقاً ممتدّاً بين تهذيبٍ وذكرٍ وخدمة، يجمعها خيطٌ واحد: الإخلاص.





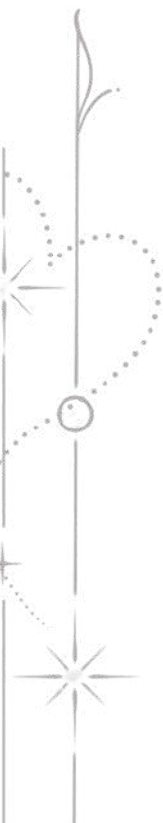
الخاتمة

- استعادة كلام الإمام الصادق عليه السلام: «وהל الدين إلا الحب».
- الحب كقوة نهضة فردية واجتماعية في فكر أهل البيت عليهم السلام.
- دعوة لتطبيق الحب منهج حياة.



الخاتمة

- استعادة كلام الإمام الصادق عليه السلام: «وהל الدين إلا الحب».



حين نستحضر مرة أخرى كلام الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «وهل الدين إلا الحب؟»، فإننا في الحقيقة لا نستدعي عبارة موجزة بقدر ما نستدعي أفقاً معرفياً وروحياً كاملاً، يتجاوز حدود التعريفات الفقهية والتقارير الكلامية، ليغوص في لبّ التجربة الدينية كما أرادها الله سبحانه وتعالى لعباده. إنّ هذا السؤال، بما يحمله من صيغة الحصر والاستفهام، يُراد به أن يحدث زلزلة في المفهوم، وأن ينقل الإنسان من التدين الشكلي إلى التدين الجوهرى، من ظاهر الأداء إلى باطن الحضور، من الالتزام الجاف إلى الاندماج الوجداني.

فالدين، كما يُفهم من هذا البيان العلوي، ليس منظومة منفصلة عن مشاعر الإنسان، ولا هو قانون مفروض من خارج كيانه، بل هو حالة تفاعل حيّ بين العبد وربّه، قوامها الحبّ، ومحورها الانجذاب، وغايتها القرب. ومن هنا، فإنّ كل قراءة للدين تُقصي عنصر الحب، أو تُهمّشه، إنما هي قراءة مبتورة، ترى الجسد دون الروح، والشكل دون الحقيقة.

إنّ الخطأ الذي يشير إليه الإمام صلوات الله وسلامه عليه ضمناً، هو ذلك الفصل الذي وقع في بعض أنماط الوعي الديني، حين تحوّلت الشريعة إلى مجموعة من التكاليف الثقيلة التي تُؤدّي بدافع الخوف أو العادة، لا بدافع الحبّ والشوق. فصار الإنسان يصبّي لأنّه مُلزم، لا لأنّه مشتاق، ويصوم لأنّه مأمور، لا لأنّه متقرّب، ويطيع لأنّه يخشى العقاب، لا لأنّه يجد في الطاعة لذة القرب. وهنا يفقد الدين أثره العميق، ويتحوّل إلى عبء، بدل أن يكون طاقة تحرير وارتقاء.



بينما يعيد الإمام الصادق (عليه السلام) ترتيب المعادلة من أساسها: فالحبّ ليس نتيجة للدين فحسب، بل هو أصله وروحه. إنّه القاعدة التي تنبثق منها الطاعة، والمعنى الذي يُضفي على الأحكام حياتها. فالصلاة، في هذا الأفق، ليست حركات متتابعة، بل هي لقاء عاشق بمعشوقه، ومناجاة قلبٍ وجد طريقه إلى مصدره.

والصيام ليس مجرد كفّ عن المفطرات، بل هو تخلٍّ عمّا يشغل القلب عن محبوبه. والحجّ ليس انتقالاً مكانياً فحسب، بل هو سفر روحي نحو مركز الجذب الإلهي.

ومن هنا تتجلّى دقّة التعبير: «وهل الدين إلا الحب؟» أي أنّ كل ما في الدين، من عقائد وشرائع وأخلاق، إن لم يُستمدّ من الحبّ ويؤدّ إليه، فإنّه يفقد جوهره.

فالإيمان بلا حبّ يتحوّل إلى قناعة باردة، والعمل بلا حبّ يصبح حركة بلا روح، والأخلاق بلا حبّ تعدو تكلفاً وتصنعاً.

أمّا إذا تسلّل الحبّ إلى هذه الأبعاد، فإنّه يُحييها من الداخل، ويجعلها متدفّقة بالحياة والمعنى.





وهذا الحب، في الرؤية أهل البيت صلوات الله عليهم، ليس مفهوماً تجريدياً غامضاً، بل هو حبّ موجّه، له مصاديقه الواضحة: حبّ الله، وحبّ رسوله صلى الله عليه وآله، وحبّ أوليائه عليهم السلام، وعلى رأسهم الإمام الحسين بن علي (عليها السلام)، بما يمثّله من ذروة في تجلّي القيم الإلهية. فمحنة الإمام الحسين عليه السلام ليست انفعالاً عاطفياً منفصلاً عن الدين، بل هي امتداد لهذا الأصل: لأنّها حبّ للحق الذي قام به، وللقيم التي ضحّى من أجلها، وللنموذج الإنساني الذي جسّده في أعلى مراتبه.

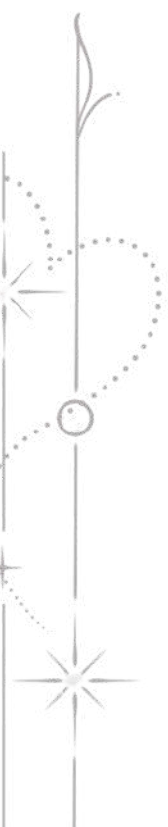
وبهذا المعنى، يصبح الحبّ معياراً كاشفاً لصدق التدين: فبقدر ما يتجدّر الحبّ في القلب، يتعمّق الإيمان، وتسمو الطاعة، وتصدق الأخلاق. وبقدر ما يضعف هذا الحب، تتحوّل الممارسات الدينية إلى هياكل فارغة، مهما بدت مكتملة في ظاهرها.

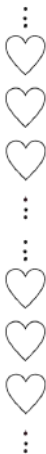
إنّ استعادة هذا السؤال ليست ترفاً فكرياً، بل ضرورة إصلاحية، تعيد للدين روحه في زمن كثرت فيه الأشكال وقلّت فيه الأرواح. إنّها دعوة لأن نعيد النظر في علاقتنا بالله: هل نعبده لأننا نحبه، أم لأننا نخافه فقط؟ هل نقف بين يديه بقلوب حاضرة، أم بأجساد تؤدّي ما اعتادت عليه؟ هل نرى في الدين طريقاً إلى القرب، أم مجموعة التزامات ننتظر انتهاءها؟.





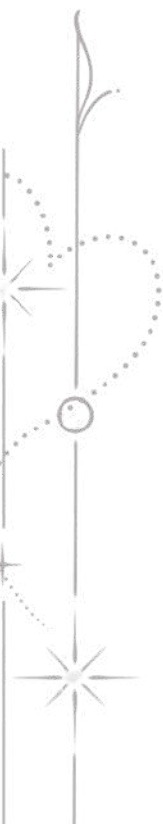
وحين يُعاد بناء هذه العلاقة على أساس الحب، يتغيّر كل شيء: تتحوّل العبادة إلى لذة، والتكليف إلى شرف، والطريق إلى الله سبحانه وتعالى إلى رحلة شوق لا تنتهي. وعندها فقط نفهم أنّ سؤال الإمام (عليه السلام) لم يكن مجرد عبارة، بل كان مفتاحاً لبناء إنسان جديد، يعيش الدين بوصفه حبّاً، لا بوصفه عبثاً، ويجد في كل طاعة فرصةً للاقترب، لا مجرد واجب يُؤدّى.





الخاتمة

- الحب كقوة نهضة فردية واجتماعية في فكر أهل البيت عليهم السلام.





في منظومة أهل البيت (عليهم السلام)، لا يُفهم الحب بوصفه انفعالاً عابراً أو حالة وجدانية محدودة الأثر، بل بوصفه بنية داخلية عميقة تُعيد تشكيل الإنسان من جذوره، وتُعيد توجيه مسار المجتمع بأكمله. إنّه ليس مجردّ شعور يُضاف إلى الدين، بل هو المحرّك الخفي الذي يمنح الدين قدرته على الفعل والتغيير.

ومن هنا، فإنّ الحديث عن الحب في هذا السياق هو حديث عن قوّة نهضوية كامنة، إذا ما أُحسن توجيهها، استطاعت أن تنقل الإنسان من حالة السكون إلى حالة الحركة، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن الذاتية الضيّقة إلى الأفق الرسالي الرحب.

فالفرد الذي يتربّى على حبّ الله سبحانه وتعالى، وعلى حبّ أوليائه صلوات الله عليهم، وفي طليعتهم الإمام الحسين بن علي (عليها السلام)، لا يعود ذلك الإنسان الذي تحكمه غرائزه أو تحدّه مصالحه الشخصية، بل يتحوّل إلى كيان حيّ يتفاعل مع القيم الكبرى، ويستشعر مسؤوليته تجاهها.

إنّ الحب هنا يُعيد صياغة الهوية: فلا يعود الإنسان يُعرّف نفسه بما يملك، بل بما يؤمن به، ولا بما يأخذه، بل بما يعطيه في سبيل ما يحب.

وهذا التحوّل الداخلي ليس أمرًا سطحيًا، بل هو انتقال جذري في بنية الوعي. فالمحبّ يرى الحقّ لا بوصفه خيارًا من بين خيارات، بل بوصفه ضرورة وجودية لا يمكن التفريط بها.

ويرى العدل لا كقيمة نظرية، بل كرسالة يجب أن تتجسّد في الواقع، مهما كلف الأمر.

ومن هنا، فإنّ الحب يصنع إنسانًا يحمل في داخله رقابة ذاتية أعلى من كل القوانين؛ لأنّ دافعه ليس الخوف من العقوبة، بل الوفاء للمحبوب، والحرص على أن لا يخدش صفاء العلاقة معه.

إنّ هذا النمط من الإنسان هو الذي يُنتج الفعل النهضوي الحقيقي؛ لأنّ نهضته لا تقوم على ردود الأفعال، بل على قناعة راسخة، ولا تُبنى على المصالح، بل على القيم.

ولذلك، فإنّ كل حركة إصلاحية عميقة لا بدّ أن يكون في أساسها حبٌّ صادق: حبّ للحق، حبّ للعدل، حبّ للإنسان.

وهذا ما يتجلّى بوضوح في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، حيث يتحوّل الحب إلى وعي، والوعي إلى موقف، والموقف إلى تضحية.



وعندما تنتقل من الفرد إلى المجتمع، تتسع دائرة هذا الحب لتحوّل إلى منظومة علاقات متكاملة. فالمجتمع الذي يُبنى على الحب، لا تُدار شؤونه بمنطق الهيمنة أو التنافس الأناني، بل بمنطق التراحم والتكافل والتكامل. إنّه مجتمع يرى أفرادَه في بعضهم البعض امتدادًا إنسانيًا، لا منافسين أو خصومًا. ومن هنا، فإنّ القيم التي يؤكّد عليها القرآن من قبيل التواصي بالحق والتواصي بالصبر، لا يمكن أن تتحقّق في فراغ عاطفي، بل تحتاج إلى أرضية من الحب تربط القلوب قبل أن تنظّم السلوك.

وفي هذا الإطار، تبرز معركة كربلاء بوصفها النموذج الأعلى لتجلّي الحب كقوّة نهضوية. فالمشهد الكربلائي لم يكن ساحة صراع عسكري بقدر ما كان ميدانًا لانكشاف أعماق الحب في أرقى صورهِ. لقد تحوّل الحب هناك إلى ثبات أمام الموت، وإلى وفاء لا يتزعزع، وإلى استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل بقاء القيم حيّة. لم يكن أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يتحرّكون بدافع المصلحة، ولا تحت ضغط الإكراه، بل بدافع حبّ جعلهم يرون في الموت حياة، وفي الفداء خلودًا.

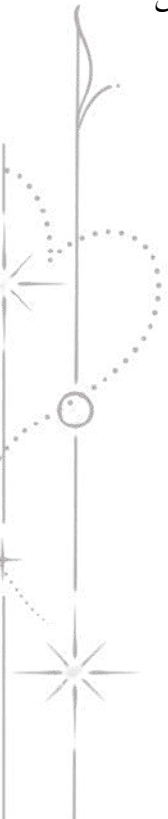
وهنا تتجلّى الحقيقة الكبرى: أنّ الحب، حين يبلغ مداه الحقيقي، لا يبقى مجرد شعور، بل يتحوّل إلى قوّة تاريخية قادرة على تغيير مسار الأحداث. إنّه القوّة التي تصنع الشهداء، وتنتج المصلحين، وتبني الأمم على أساس من القيم الراسخة. ومن دون هذا الحب، تبقى كل المشاريع الإصلاحية مهدّدة بالانهيار؛ لأنّها تفتقد إلى الوقود الداخلي الذي يضمن استمرارها وثباتها.

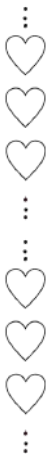




وعليه، فإنّ إعادة إحياء مفهوم الحب في فكر أهل البيت (عليهم السلام) ليست مسألة تربوية فحسب، بل هي ضرورة حضارية؛ لأنّها تعني إعادة بناء الإنسان من الداخل، وإعادة تأسيس المجتمع على قاعدة من القيم الحيّة. فحيثما وُجد الحب، وُجدت القدرة على النهوض، وحيثما غاب، حلّ محلّه الجمود أو الانحراف، مهما كانت الشعارات المرفوعة برامة.

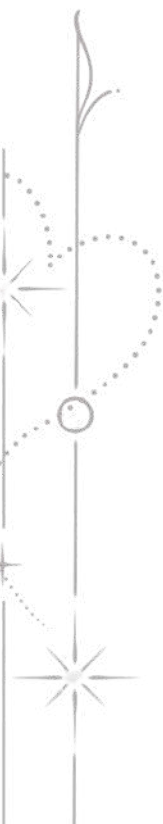
إنّ الحب، في نهاية المطاف، هو سرّ الحركة في هذا الدين، وهو الروح التي إذا سرت في الفرد والمجتمع، أحالتهما إلى كيان نابض بالحياة، قادر على مواجهة التحديات، وصناعة التاريخ، والاقتراب المستمر من المثال الإلهي الذي خلّق الإنسان ليلبّغه.





الخاتمة

- دعوة لتطبيق الحب منهج حياة.



إنَّ الحديث عن الحب، في أفق مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، لا يكتمل ما لم يتحوّل من مستوى التنظير إلى ميدان التطبيق، ومن حيّز التأمل إلى واقع الممارسة. فالحب، كما يُراد له في هذا الامتداد الرسالي، ليس مفهوماً تجريدياً يُتداول في الخطاب، ولا حالة وجدانية تُستحضر في لحظات الصفاء فحسب، بل هو منهج وجودي شامل، يُعاد على أساسه تشكيل الحياة كلّها، في بعدها الفردي والاجتماعي، الظاهر والباطن.

إنَّ هذا المنهج يبدأ من النقطة الأكثر حساسية في كيان الإنسان: من القلب. فالقلب هو موطن الحب، وهو المنبع الذي تتدفّق منه سائر الاتجاهات. ومن هنا، فإنَّ إصلاح القلب لا يكون بإكثار الأعمال الظاهرية فحسب، بل بتزكية الداخل، وتنقية النية، ومجاهدة ما يعتري النفس من شوائب الأنانية والرياء وحبّ الذات. وحين يتطهّر القلب، يصبح قابلاً لاستقبال ذلك الحبّ الإلهي الذي يملأه نوراً وطمأنينة، ويحوّله من مركز للرغبات المتنازعة إلى مركز للاتجاه الواحد نحو الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا السياق، تتأسّس العلاقة مع الله جل وعلا لا على الخوف وحده، ولا على الطمع المجرد، بل على الشوق والأنس؛ على ذلك الحنين الداخلي الذي يدفع الإنسان إلى مناجاة ربّه، لا بوصفها واجباً ثقيلاً، بل بوصفها لحظة لقاء لا يُستغنى عنها. وهنا، تتحوّل العبادة من أداءٍ وظيفي إلى حضور وجداني، ومن عادة مكرّرة إلى تجربة حيّة متجدّدة.



غير أنّ الحب، إذا بقي حبيس الداخل، لم يحقق غايته الكاملة. إذ لا بدّ له أن يفيض إلى الخارج، وأن يتجلى في تفاصيل السلوك اليومي. فالمحبّ، في ميزان أهل البيت عليهم السلام، هو من يُترجم ما في قلبه إلى أفعال: فيكون صادقاً لأنّه يحبّ الصدق، أميناً لأنّه يرى في الأمانة انعكاساً لقيم محبوبه، رحيماً لأنّ قلبه امتلأ بالرأفة، صبوراً لأنّه يدرك أنّ الطريق إلى الله محفوف بالابتلاءات.

وهنا تتجلى حقيقة دقيقة: أنّ الحبّ الحقيقي لا يُقاس بحدّة الشعور، بل بصدق الأثر. فكم من عاطفة متّقدة لا تترك أثراً في السلوك، وكم من حبّ صامت يملأ الحياة استقامة وإحساناً. ولذلك، فإنّ معيار الحب في هذا المنهج ليس ما يشعر به الإنسان فحسب، بل ما يصدر عنه من مواقف وأفعال.

وحين يُعاد بناء الحياة على هذا الأساس، يبدأ التحوّل العميق في منظومة الأولويات. فالأشياء التي كانت تشغل حيّزاً كبيراً من اهتمام الإنسان تتراجع، لتحلّ محلّها القيم الكبرى. ويصبح السؤال المركزي في حياة الإنسان: ماذا يُرضي الله؟ لا ماذا يُرضي رغباتي؟ ماذا ينسجم مع خطّ الحق؟ لا ماذا يحقق مصلحتي الآنية؟ وبذلك، ينتقل الإنسان من العيش في دائرة الذات إلى العيش في أفق الرسالة.





وفي هذا الامتداد، يكتسب الإنسان وعيًا جديدًا بذاته: فيدرك أنّه ليس كائنًا عابرًا في هذا العالم، بل هو حامل أمانة، ومكلّف بدور، ومسؤول عن أثره في هذا الوجود. ومن هنا، فإنّ الحب لا يكتفي بإصلاح الفرد، بل يدفعه إلى الإسهام في إصلاح مجتمعه، لأنّ من أحبّ القيم لا يمكنه أن يقبل بانتهاكها في الواقع.

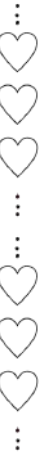
وإذا أردنا أن نرى النموذج الأسمى لهذا الحب المتحوّل إلى منهج حياة، فإنّنا نجد تجلّيه الأوضح في سيرة سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث لم يكن الحب مجرد شعور في قلبه صلوات الله عليه، بل كان طريقًا سلكه، وموقفًا اتّخذه، وتضحية قدّمها.

لقد كان الحب عنده التزامًا بالحق حتى النهاية، وصدقًا مع الله سبحانه وتعالى لا يتزعزع، وانصهارًا كاملاً في الرسالة.

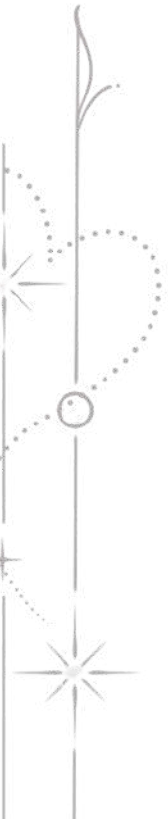
وعليه، فإنّ الدعوة إلى تطبيق الحب منهجًا للحياة ليست دعوة مثالية بعيدة عن الواقع، بل هي دعوة إلى إعادة اكتشاف المعنى الحقيقي للحياة نفسها.

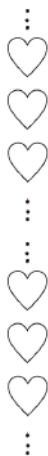
إنّها دعوة لأن يعيش الإنسان دينه بعمق، لا بسطحية؛ بروح، لا بشكل؛ بحضور، لا بغياب.



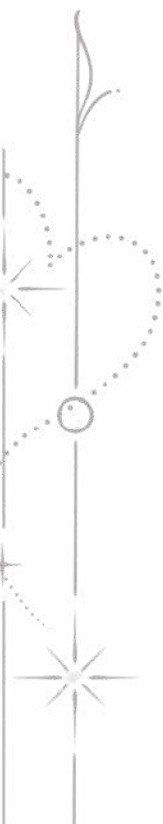


وحين يتحقّق ذلك، لا يبقى الدين فكرة تُتداول في المجالس، بل يصبح تجربة تُعاش في كل لحظة، ولا يبقى الحب شعورًا عابرًا يمرّ في القلب، بل يتحوّل إلى طريق ممتدّ، يقود الإنسان خطوةً بعد خطوة نحو الكمال الإنساني، ويقربه من الله قريبًا يملأ وجوده سكينَةً وامتلاءً ومعنى





خاتمة الكتاب





نعود، في ختام هذا المسار، إلى تلك الكلمة الذي أطلقها الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «وهل الدين إلا الحب؟»، لنكتشف أنه لم يكن كلامًا عابرًا، بل كان خلاصة مشروعٍ كاملٍ في فهم الدين، وإعادة بنائه في وعي الإنسان. لقد كانت هذه الكلمة بمثابة مفتاحٍ فتح لنا أبواب هذا الكتاب كلّها؛ فمنه ابتدأنا، وإليه ننتهي، وكأنّ الرحلة كلّها لم تكن إلا محاولةً لفهم هذه الكلمة واستنطاق أبعادها في حياة الفرد والمجتمع.

لقد تبين لنا أنّ الحب، في فكر أهل البيت (عليهم السلام)، ليس حالةً شعورية طارئة، ولا نزعةً وجدانية معزولة، بل هو الأصل الذي تتفرّع عنه سائر معاني الدين. فالإيمان، في جوهره، حبٌّ لله ولما يحب، وبغضٍّ لما يُبغضه، كما ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام). والطاعة ليست امتثالًا جافًا، بل استجابة عاشقة لنداء المحبوب. والولاية ليست انتماءً شكليًا، بل ارتباط قلبي عميق يُترجم في الموقف والسلوك.

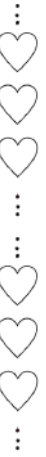
ومن خلال هذا الأفق، أدركنا أنّ الحب هو الذي يمنح الإيمان حيويّته، ويمنح الأعمال معناها، ويمنح الأخلاق روحها. فبدونه، تتحوّل العبادة إلى عادة، والتدين إلى شكل، والقيم إلى شعارات. أمّا معه، فإنّ كل شيء يستعيد معناه الحقيقي: تصبح الصلاة معراجًا، والصيام تربية، والعطاء امتدادًا للرحمة الإلهية في الأرض.

ثم رأينا كيف يتحوّل هذا الحب من قوّة داخلية في الفرد إلى قوّة نهضوية في المجتمع. فالمحبّ لا يعيش لنفسه فقط، بل يحمل همّ غيره، ويسعى لإصلاح واقعه، ويقف مع الحقّ حيثما كان. ومن هنا، لم يكن الحب في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) انعزاًلاً عن الحياة، بل انخراطاً واعياً فيها، وتحملاً لمسؤولياتها، وسعيًا دائماً لتقويم مسارها.

وقد تجلّى هذا المعنى في أروع صوره في سيرة الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث بلغ الحب ذروته، فتحوّل إلى تضحية، وإلى ثبات، وإلى مشروع إصلاح لم ينطفئ أثره عبر التاريخ. لقد كان الإمام الحسين (عليه السلام) شاهداً حيّاً على أنّ الحب، إذا صدق، لا يكتفي بأن يُشعر، بل يغيّر، ولا يكتفي بأن يعبر، بل يبنّي ويصلح.

وفي مقابل هذا الحب الصادق، وقفنا على أخطار الحب الزائف، ذلك الذي ينفصل عن الحق، أو يتحوّل إلى تبعية عمياء، أو يُختزل في مصالح آنية. فكان لا بدّ من تربية القلب، وتهذيبه، ليكون حبّه لله، وفي الله، وعلى أساس الوعي والبصيرة، لا الهوى والانفعال.

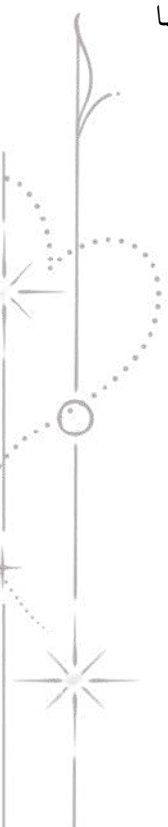
ومن هنا، فإنّ الرسالة التي يخرج بها هذا الكتاب لا تقف عند حدود المعرفة، بل تتجاوزها إلى الدعوة: دعوة لأن نتفكر في ديننا من خلال الحب، وأن نُعيد بناء علاقتنا بالله سبحانه وتعالى على أساس الشوق، لا الخوف وحده، وعلى أساس القرب، لا البعد. دعوة لأن نجعل الحب معياراً لإيماننا، وميزاناً لأعمالنا، وروحاً تسري في أخلاقنا وتعاملاتنا.

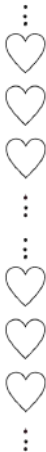


إنّا مدعوون لأن نحول الحب إلى منهج حياة: في بيوتنا، في علاقاتنا، في مجتمعاتنا، في مواقفنا من القضايا الكبرى. أن نكون محبين بحق، لا بالادّعاء؛ وأن نترجم هذا الحب صدقاً، وعدلاً، ورحمةً، وصبراً، وعطاءً.

وحين يتحقّق ذلك، لن يبقى الدين فكرةً تُقال، بل سيغدو حياةً تُعاش، ولن يبقى الحب شعوراً عابراً، بل سيصبح طريقاً ممتداً نحو الكمال الإنساني، ووسيلةً للقرب الإلهي.

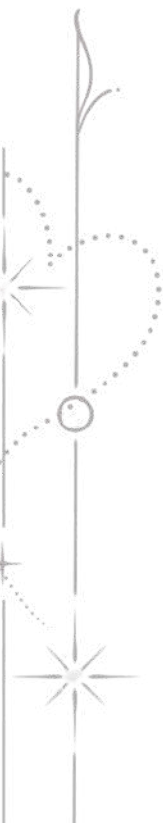
وهنا فقط، نفهم عمق كلمة الإمام الصادق (عليه السلام): «وَهَلَّ الدِّينَ إِلَّا الْحُبُّ؟»... لا بوصفها عبارةً تُرَدَّد، بل بوصفها حقيقةً تُبنى عليها الحياة كلّها.

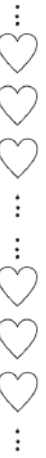




نظرة خاطفة

- بعض السياقات المختلفة التي وردت لفظة الحب في القرآن الكريم.





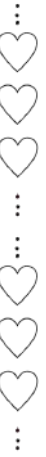
“وأحسنوا إن الله يحبّ المحسنين” وما في معناها من الآيات

حين نتأمل في قوله تعالى: ﴿وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾، لا نقف عند حدود توجيه أخلاقيّ عام، بل ندخل في بنية قرآنية عميقة تعيد تعريف مفهوم الحبّ من أساسه.

فالقرآن، حين يسند الحبّ إلى الله تعالى، لا يريد أن يُفهم بوصفه حالة وجدانية أو انفعاليًا نفسيًا كما هو شائع في التجربة البشرية، بل يرفعه إلى مرتبة «التقويم الإلهي»؛ أي أنّ الحبّ هنا حكمٌ قيميّ يصدر عن الله سبحانه وتعالى بحقّ عباده، يُعبّر عن رضاه وقبوله واصطفائه.

ومن هنا، فإنّ الحبّ الإلهي ليس أمرًا يُدعى، ولا حالةً تُستشعر فحسب، بل هو نتيجةٌ لمسارٍ سلوكيّ وأخلاقيّ متكامل. فحين يقول تعالى: يحبّ المحسنين، أو يحبّ المتقين، أو يحبّ المتطهرين، أو يحبّ المتوكّلين، فإنّه يضع معايير محدّدة لمنزلةٍ رفيعة، هي منزلة أن يكون الإنسان «محبوبًا عند الله تبارك وتعالى».

وهذه المنزلة لا تُنال بالعاطفة، بل بالتحقّق بتلك الصفات التي تعبّر عن كمال العبودية.



الإحسان وهو محور الآية ليس مجرد فعل الخير في ظاهره، بل هو بلوغ درجة الإتقان والصفاء في العمل، بحيث يصدر الفعل من قلبٍ واعٍ بحضور الله جل وعلا.

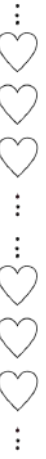
كما ورد في الحديث الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فالمحسن لا يعمل فقط وفق التكليف، بل يتجاوز ذلك إلى الإتقان، وإلى استحضار البُعد الروحيّ في كلّ سلوك.

ومن هنا، كان الإحسان ذروة سلّم القيم، لأنّه يجمع بين صحة الفعل ونقاء النية.

ثم إنّ القرآن، في مقابل ذلك، ينفي الحبّ عن فئاتٍ أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَا يَحِبُّ الْمَفْسِدِينَ﴾، ﴿لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وهذا النفي ليس مجرد توصيف، بل هو إنذارٌ أخلاقيّ يُبين أنّ الخروج عن ميزان القيم الإلهية يقطع الصلة بمحبة الله. فكأنّ الإنسان يتحرّك في فضاءٍ قيميّ: كلّما اقترب من صفات الإحسان والتقوى، اقترب من دائرة الحبّ الإلهي، وكلّما انغمس في الظلم والفساد، ابتعد عنها.





وهنا تتجلى النقطة التي أشرت إليها بدقّة: فالحبّ لم يعد «ما أشعر به تجاه ما أحبّ»، بل «ما يجعلني أهلاً لأن أحبّ». وهذه نقلة جوهرية في بناء الإنسان؛ إذ تُحرّر القلب من التعلّق بالنزوات العابرة، وتربطه بمعيارٍ ثابتٍ هو رضا الله. فالإنسان، في ضوء هذا الفهم، لا يسأل: ماذا أحبّ؟ بل يسأل: كيف أكون ممّن يحبّه الله؟.

وهذا التحوّل يعيد ترتيب أولويّات النفس. فبدل أن يكون الهوى هو الموجّه، يصبح «القرب من محبّة الله» هو البوصلة. وبهذا، تتبدّل نظرة الإنسان إلى أفعاله: الإحسان إلى الآخرين، العدل في الحكم، الطهارة في الظاهر والباطن، التوكّل الصادق، الصبر، الصدق... كلّها لم تعد مجرد فضائل أخلاقيّة، بل صارت وسائل للارتقاء إلى مقام «المحبوبية» عند الله.

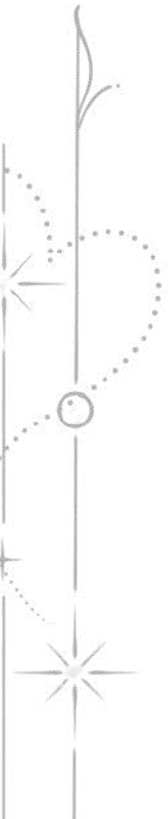
وفي هذا السياق، يمكن القول إنّ القرآن يبيّن علاقةً ثلاثيّة الأبعاد:

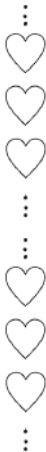
- بعدٌ معرفي: أن تعرف صفات من يحبّه الله.
- بعدٌ سلوكي: أن تسعى للتخلّق بهذه الصفات.
- بعدٌ روحي: أن تتحوّل هذه الصفات إلى حالة حضورٍ دائمٍ مع الله.



وعند هذه النقطة، يبلغ الحبّ ذروته: لا كعاطفةٍ عابرة، بل كحالة
اصطفاءٍ إلهيٍّ، يشعر بها القلب طمأنينةً، وتظهر في الواقع سلوكًا
مستقيمًا، ويُترجمها الله لعبده توفيقًا وتسديدًا.

وبهذا، فإنّ الآية الكريمة لا تأمر بالإحسان فحسب، بل تكشف عن سرٍّ
عظيم: أنّ الطريق إلى محبة الله ليس في الادّعاء، بل في البناء الداخلي
للإنسان، حتى يصبح فعله مرآةً لرضا الله، وقلبه موطنًا لقيمه.



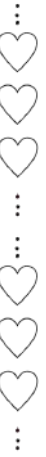


“ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله”

في هذه الآية الكريمة: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله﴾، نقلنا القرآن إلى طبقةٍ أعمق من فهم الحبّ، حيث لا يعود مجرد ميلٍ وجدانيّ، بل يصبح معيارًا عقديًّا حاسمًا، يكشف عن حقيقة الانتماء الداخلي للإنسان: أهو لله سبحانه و تعالى خالصًا، أم موزّعٌ بينه وبين غيره.

إنّ لفظ «الأنداد» في ذاته يحمل دلالة خطيرة؛ فهو لا يشير فقط إلى الأصنام الحجرية، بل إلى كلّ ما يُنصبّ في القلب موضع النّد لله: قد يكون شخصًا، أو سلطةً، أو مالًا، أو شهوةً، أو فكرةً تُعطى من التعظيم والانقياد ما لا ينبغي إلا لله.

وهنا يكمن التحوّل الدقيق: فالقضية ليست في مجرد المحبّة، بل في نوع المحبّة ومرتبّتها.



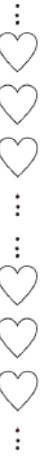
فقله تعالى: ﴿يَحِبُّونَهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ﴾ لا يعني بالضرورة أنهم يصرّحون بمساواة تلك الأنداد بالله، بل يكشف عن حالة باطنية يصبح فيها التعلّق بتلك الأشياء موازيًا للتعلّق بالله، من حيث الشدّة، أو التقديم، أو الاستعداد للتضحية.

وهنا يتحوّل الحبّ إلى نوعٍ من العبادة؛ لأنّ العبادة في جوهرها ليست أفعالاً ظاهرة فحسب، بل خضوعٌ قلبيّ وتعظيمٌ وتقديم.

ومن هنا نفهم أنّ الشرك لا يبدأ دائماً من الفكرة، بل قد يبدأ من القلب؛ من تعلّق يتضخّم تدريجياً حتى يحتلّ موقعاً لا يليق إلا بالله. فكم من إنسانٍ لا يسجد لصنم، لكنّه يخضع لشهوة، أو يقدم رضا مخلوقٍ على رضا الخالق، أو يجعل مصلحته فوق الحقّ؛ وهذا كلّ من صور النديّة في الحبّ.

ثم تأتي الجملة الفاصلة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، لتبرز الفارق الجوهرى بين حالتين:

- حالة التزوّع والتشظّي في الحبّ.
- وحالة التوحيد والتركيز.

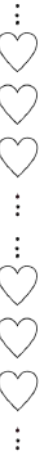


فالمؤمن لا يُلغي سائر أنواع المحبة فهو يحب أهله، وأصدقاءه، والخير، والجمال لكنه يعيد ترتيبها جميعاً تحت سقفٍ واحد: حبّ الله. فكلّ حبّ عنده إمّا أن يكون في الله، أو بالله، أو لأجل الله. ومن هنا جاءت شدّة هذا الحب؛ لأنّه ليس حبّاً عابراً، بل حبٌّ مؤسّس على معرفة، وممتدّ في كلّ تفاصيل الحياة، وثابتٌ أمام التقلبات.

وشدّة الحبّ هنا ليست انفعالاً عاطفياً فقط، بل لها تجلّيات عملية واضحة:

- أن يُقدّم أمر الله على رغبات النفس.
- أن يُختار الحقّ ولو خالف الهوى.
- أن يُصبر على الطاعة، ويُجاهد في ترك المعصية.
- أن يكون رضا الله هو المرجّح عند التعارض.

وبهذا، يصبح الحبّ ميزان الأولويّات في حياة الإنسان: ما الذي يتقدّم عند التزاحم؟ ما الذي يُضحّى لأجله؟ ما الذي يُخاف فقده؟ هنا ينكشف صدق الحبّ.

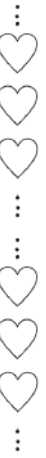


فالآية، في عمقها، لا تتحدّث فقط عن مشركين ومؤمنين بوصفٍ تاريخيٍّ، بل تقدّم مرآةً داخليةً لكلّ إنسان:
ما هو «الأنداد» في قلبي؟
وما مقدار حضور الله في سلّم حبيّ؟.

ومن خلال هذا الامتحان الباطنيّ، يتبيّن أنّ التوحيد ليس كلمةً تُقال، بل وحدة في الحبّ، تجعل القلب متوجّهًا بكلّيته إلى الله، بحيث لا ينازعه فيه شيء، ولا يسبقه عليه شيء، ولا يُقدّم عليه شيء.

وهكذا، فإنّ هذه الآية تُكمّل المعنى الذي أشرت إليه سابقًا: فكما أنّ محبة الله تُنال بالإحسان، فإنّ صدق هذه المحبة يُختبر حين تتزاحم مع غيرها. هناك، فقط، يظهر: هل الله هو الأوّل في القلب... أم أحدٌ سواه؟.



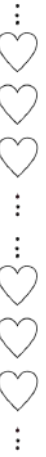


“قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم”

في هذه الآية الكريمة: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾، يبلغ الخطاب القرآني ذروة الدقة في تقويم دعوى الحب، إذ ينقلها من حيز الادّعاء إلى ميدان الاختبار العمليّ. فليس كلّ من تكلم بلغة الحب صادقاً فيه، ولذلك جاءت الآية بصيغة شرط حاسم: إن كنتم تحبّون الله... فثمّة نتيجة لازمة لا تنفك عنه، هي: الاتّباع.

وهنا تتجلّى حقيقة عميقة: أنّ الحب، في ميزان القرآن، ليس حالةً وجدانيةً مستقلّة بذاتها، بل هو قوّة دافعة تُترجم نفسها تلقائيّاً إلى سلوك. فالمحبّ الصادق لا يكتفي بالشعور، بل ينقاد؛ لأنّ طبيعة الحب تقتضي الموافقة، والسير في طريق المحبوب، والتخلّق بما يرضيه.

ومن هنا، لم يقل: فاذكروني أو فاشعروا بي، بل قال: فاتبعوني، ليؤسّس لمعادلة دقيقة: صدق الحب = صدق الاتّباع.



والاتباع هنا ليس مفهوماً شكلياً، بل هو التزامٌ شامل بمنهج النبي صلى الله عليه وآله في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والسلوك. إنه السير على خطّه في الظاهر والباطن، بحيث يصبح النموذج النبويّ مرجعاً حيّاً يُقاس عليه كلّ فعلٍ وموقف.

فليس الاتّباع أن يُؤخذ من السنّة ما يوافق الهوى ويترك ما يخالفه، بل أن يُسلّم للنموذج النبويّ تسليماً واعياً، ينشأ عن إدراكٍ أنّه الطريق الوحيد الموثوق للوصول إلى الله.

ثم تأتي النتيجة المدهشة: ﴿يحبّكم الله﴾. وهنا تنعكس العلاقة؛ فبعد أن كان الحديث عن حبّ العبد لله، يصبح الجزاء أن ينال حبّ الله له. وهذه النقلة ليست مجرد مكافأة، بل هي غاية الغايات؛ إذ إنّ محبة الله لعبده تعني توفيقه، وتسديده، وقبوله، واصطفاءه. فكأنّ الاتّباع هو الجسر الذي يعبر عليه العبد من حبه لله إلى أن يكون محبوباً عند الله.

ويُتبع ذلك بقوله: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾، في إشارةٍ دقيقةٍ إلى أنّ الاتّباع لا يثمر فقط القرب، بل يطهّر المسير. فالإنسان، مهما اجتهد، لا يخلو من تقصير، لكنّ صدق الاتّباع يفتح له باب المغفرة، لأنّه يدلّ على صدق التوجّه، وإن شابه ضعفٌ بشريّ في التطبيق.

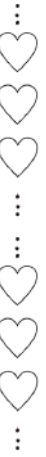
ومن هنا، تتبيّن العلاقة العضويّة بين المحبّة والطاعة: فالمحبّة ليست بديلاً عن الطاعة، ولا الطاعة مجرّد تكليفٍ جافّ منفصل عن الحبّ، بل هما وجهان لحقيقةٍ واحدة. الطاعة بلا حبّ قد تتحوّل إلى عادةٍ أو ثقل، والحبّ بلا طاعة يتحوّل إلى وهمٍ أو ادّعاء. أمّا حين يجتمعان، فإنّ الإنسان يدخل في حالة انسجامٍ داخليّ، حيث يتحرّك الجوارح بإيقاع ما يفيض به القلب.

وهكذا، فإنّ هذه الآية تُعيد تعريف الحبّ تعريفاً عملياً صارماً: ليس المهمّ ما يُقال عن الحبّ، بل ما يُفعل بسببه. ليس المهمّ حرارة الشعور، بل استقامة الطريق. وعند لحظة الامتحان — حين تتعارض الرغبة مع التكليف، أو الهوى مع السنّة — هناك فقط يظهر صدق الدعوى: هل الحبّ يقود إلى الاتّباع... أم أنّه يتراجع أمام شهوات النفس؟.

وبهذا، يكتمل البناء الذي ترسمه الآيات الثلاث:

- فمحبّة الله تُنال بالإحسان.
- وتُصان من الانحراف بعدم جعل الأنداد.
- وتُبرهن بالاتّباع.

ليكون الحبّ في النهاية منظومةً متكاملة: معرفة، وتزكية، والتزام، وسيّر دائم نحو الله، حتى يصبح القلب — بما يحمل من حبّ — شاهداً على صدق الإيمان، لا مجرّد متكلمٍ باسمه



“ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة... يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا”

هذا المقطع القرآني الأسر: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة... ويحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾، لا يكتفي النصّ بأن يصف سلوكاً أخلاقياً رفيعاً، بل يفتح نافذة على باطن التجربة الإيمانية حين تبلغ ذروتها في ميدان العلاقات الإنسانية، حيث يتحوّل الحبّ من مجرد ميلٍ إلى الآخر، إلى حالةٍ من الذوبان الواعي في معناه، حتى يغدو العطاء فيه امتداداً للذات لا انتقاصاً منها.

إنّ الأنصار، في هذا المشهد، لا يُعرضون بوصفهم جماعةً أحسنت الضيافة فحسب، بل بوصفهم نموذجاً لنوعٍ خاصٍّ من الحبّ، حبّ تحرّر من حسابات الربح والخسارة، وانفلت من قيود المصلحة الضيقة، ليبنى على أساسٍ أعمق: إدراك أنّ رابطة الإيمان تعيد تعريف معنى «الآخر»، فلا يعود غريباً يُفضّل عليه، بل قريباً يُؤثّر ويُقدّم، لأنّ ما يجمع القلوب هنا ليس ظرفاً عابراً، بل انتماءً إلى معنى أعلى.



وحين يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، فإنَّ العبارة تنفذ إلى لحظةٍ دقيقةٍ من لحظات النفس، تلك اللحظة التي يتراحم فيها الاحتياج مع العطاء، والرغبة مع التنازل. فالإنسان في طبيعته يميل إلى الاحتفاظ بما يملك، ويشتدّ هذا الميل حين تضيق ذات اليد، وحين تلوح الحاجة من الداخل ملحّةً ومُلزِمةً.

غير أنّ هؤلاء تجاوزوا هذا الحدَّ الفطريّ، لا قهراً للنفس فحسب، بل إعادةً لتربيتها، حتى صار تقديم الآخر ممكناً، بل مفضّلاً، رغم حضور الحاجة.

لكنَّ العظمة لا تقف عند هذا الحدّ الظاهر؛ إذ إنّ كثيرين قد يُعطون وهم في ضيق، وقد يُؤْثِرُونَ غيرهم في موقفٍ عابر، غير أنّ القرآن هنا يكشف عن طبقةٍ أعمق، طبقةٍ لا تُرى في السلوك، بل تُستشعر في خفايا الصدر: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صَدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾.

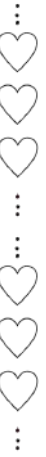
إنَّه نفْيٌ دقيقٌ لكلِّ أثرٍ داخليٍّ قد يكدّر صفاء العطاء؛ فلا غصّة تلوح بعده، ولا مقارنة تُعكّر صفوه، ولا شعور خفيٍّ بأنَّ الآخر نال ما كان أولى بهم. إنَّه عطاءٌ خرج من القلب نظيفاً، فعاد إليه مطمئناً.



وهنا تتجلى حقيقة الحب في أرقى صورته: ليس أن تعطي فحسب، بل أن تعطي وقلبك ساكن، راضٍ، منشراح، لا يُراجع نفسه ندمًا، ولا يستحضر ما فقدته، بل يأنس بما قدّمه، وكأنّ ما وصل إلى غيره قد استقرّ فيه هو. إنّها لحظة اتّساع في النفس، تتجاوز فيها حدود «الأنا» الضيّقة، لتشمل الآخر في دائرة الشعور والاهتمام.

ومن هذا الأفق، يتحوّل الحب إلى قوّة خفيّة تُعيد بناء المجتمع من الداخل. فحيث يسود هذا النمط من المحبّة، لا تبقى العلاقات رهينة المصالح، ولا تتاكلها المنافسات، لأنّ كلّ فردٍ يحمل في قلبه استعدادًا لأن يُقدّم، لا أن يزاحم، وأن يفرح بعبء غيره كما يفرح بعبئه. وهكذا تتشكّل وحدة لا تُفرض بقانون، ولا تُصان بمراقبة، بل تنبع من قلوبٍ تعلّمت كيف تتجاوز ذاتها.

إنّ هذا النصّ، في عمقه، لا يروي حكاية جيلٍ مضى، بل يرسم أفقًا إنسانيًا ممكنًا، يضع أمام القلب ميزانًا دقيقًا: كيف تحبّ؟ وكيف تعطي؟ وماذا يبقى في داخلك بعد أن تعطي؟ هناك، في تلك المساحة الخفيّة بين الفعل والشعور، يتحدّد مستوى الصدق، ويتجلى معنى الحبّ كما يريده القرآن: صفاءً في الداخل، وسخاءً في الخارج، واتّساعًا يجعل للآخر نصيبًا من القلب... كما له نصيبٌ من العطاء



“إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً”

في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، يفتح أماننا أفقٌ مختلف في فهم الحب؛ إذ لا يُعرض بوصفه مجرد حالة تنشأ في النفس، ولا نتيجة مباشرة للعلاقات بين الناس، بل يُقدّم كمنحة إلهية خفية، تنزل على قلب الإنسان بعد أن يتهيأ لها بالإيمان والعمل الصالح.

إنّ السياق هنا لافتٌ في دقته؛ فالآية لا تتحدّث عن جهد يبذله الإنسان ليكون محبوباً، بل عن فعل يتولاه الله بنفسه: ﴿سَيَجْعَلُ﴾. وهذا التعبير يحمل إيحاءً بأنّ ثمة سرّاً يتجاوز الظاهر؛ فليست كلّ محبة تُفسّر بالأسباب المعتادة، ولا كلّ قبول يُكتسب بالمهارة أو الحضور الاجتماعي. إنّ هناك نوعاً من القبول يُلقى في القلوب إلقاءً، ويستقرّ فيها استقراراً لا يخضع لحسابات البشر.

ومن هنا، يبرز لفظ «الودّ» بما فيه من عمقٍ وخصوصيّة. فالودّ ليس حبّاً عابراً، ولا إعجاباً مؤقتاً، بل هو محبة صافية، هادئة، ثابتة، تنشأ في القلب دون تكلف، وتبقى فيه دون اضطراب. إنّ ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان مألوفاً، قريباً، مقبولاً، حتى وإن لم تتكتف بينه وبين الآخرين أسباب ظاهرة.



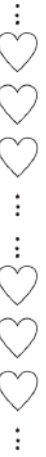
غير أنّ هذا العطاء الإلهي لا يأتي اعتباطاً؛ بل يرتبط بشرطٍ واضحٍ بينته الآية: الإيمان والعمل الصالح. فالإيمان يصفّي الداخل، ويعيد ترتيب علاقة الإنسان برّبّه، والعمل الصالح يُجسّد هذا الصفاء في الواقع، فيتحوّل إلى سلوكٍ نافع، وأثرٍ طيّب. وحين يلتقي صفاء الباطن بصلاح الظاهر، تتكوّن في شخصية الإنسان حالةٌ من الانسجام، تكون مهياًً لأن يفيض عليها هذا «الودّ» الإلهي.

وهنا تتجلّى حقيقة دقيقة: أنّ بعض الناس قد يسعون إلى محبة الآخرين بوسائل مباشرة، فيتكلّفون اللطف، أو يتصنّعون القبول، لكنّ أثرهم يبقى محدوداً، لأنّه صادرٌ من ظاهرٍ لم يترسّخ في عمقٍ روحيّ. أمّا من أصلح سريره، وأقام علاقته بالله على الإيمان والعمل، فإنّ أثره يتجاوز سلوكه الظاهر، ليبلغ القلوب نفسها، حيث يُزرع له فيها قبولاً لا يملكه هو، ولا يستطيع أن يصنعه بنفسه.

وهكذا، فإنّ الحبّ في هذه الآية يبلغ مرتبةً سامية: ليس فقط ما يخرج الإنسان من قلبه، بل ما يُلقى في قلوب الآخرين نحوه؛

ليس فقط ما يُبذل، بل ما يُوهب؛
وليس فقط ما يُبنى بالسعي، بل ما يُستكمل بالعطاء الإلهي.

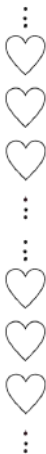




وعند هذا الحدّ، تتكامل الصورة: فالإيمان والعمل الصالح ليسا غايةً في ذاتهما فحسب، بل طريقٌ إلى أن يصبح الإنسان موضع رحمةٍ خاصّة، يظهر أثرها في القلوب «ودًّا»، وفي الواقع «قبولًا»، وفي العلاقات «طمأنينة». وكأنّ الله، حين يرى من عبده صدق التوجّه، يتكفّل له بما لا يقدر عليه بنفسه: أن يُحبّ، لا بتكلّفٍ منه، بل بفيضٍ من عنده

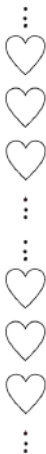
وهكذا، ومع هذا التدرّج الدقيق، لا يعود الحديث عن الحبّ في القرآن مجرد إشاراتٍ متفرّقة، بل تتكوّن أماننا لوحةً مكتملة الملامح، تنكشف فيها معالم الطريق شيئًا فشيئًا. يبدأ الخطاب بتحذير القلب من أن ينحرف بحبّه، فيتعلّق بما لا يستحقّ، ثم يأخذه برفقٍ نحو تنظيم هذا الميل، فيعيد ترتيب علاقاته على أساسٍ من الحقّ والميزان، حتى إذا استقام، رُبط هذا الحبّ بمصدره الأعلى، بالله، فيغدو متّصلًا به، مستمدًّا معناه منه. ثم لا يلبث أن يخرج من حيز الشعور إلى ميدان الحياة، فيتجسّد سلوكًا، ويترجم موقفًا، ويؤنّس به واقع.

وعند هذه النقطة، يتّضح أنّ الحبّ، كما يقدّمه القرآن، ليس حالةً عابرة تُعاش في داخل النفس، بل مسارٌ طويل تُهدّب فيه المشاعر، ويُربّى فيه القلب، ويُعاد تشكيله على ضوء القيم. إنّه ميزانٌ دقيق تُوزن به الأولويّات، فينكشف به صدق الإنسان من ادّعاءه، ونورٌ خفيّ لا يُعطى لكلّ أحد، بل يُمنح لمن صدق في سيره، وأخلص في توجّهه، حتى يصبح الحبّ فيه ليس ما يشعر به فحسب، بل ما يصير إليه.



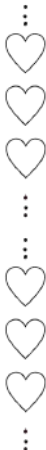
والحمد لله ربّ العالمين
والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه محمد والمصطفى وآل بيته الطيبين
الطاهرين

أبو يقين نور الزهراء



محتوى الكتاب

- مقدمة عامة..... ٥
- معنى الحب في فكر أهل البيت: بين معرفة الله وخدمة خلقه.
لماذا كان الحب عندهم أساس الدين لا فرعه.
روايات مثل: «هل الدين إلا الحب» عن الإمام الصادق عليه السلام.
- مقدمة الكتاب..... ٩
- تمهيد..... ١٣
- مدخل البحث..... ١٥
- الفصل الأول: الحب أصل الإيمان..... ٢٥
- الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله.
الحب كميزان للولاية والاتباع.
العلاقة بين الحب والولاء لأهل البيت.
- الفصل الثاني: حب الله ورسوله وأهل بيته..... ٤٤
- حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».
حب علي عليه السلام كمعيار الإيمان: «لا يحبك إلا مؤمن».
كيف كان الأئمة يربون شيعتهم على محبة الله قبل كل شيء.



محتوى الكتاب

الفصل الرابع: الحب في مواجهة الكراهية..... ٧٥

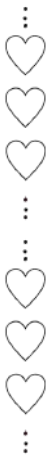
مواقف الإمام الحسن عليه السلام في الصلح، دروس وعبر.
الإمام السجاد عليه السلام ودعاؤه لأعدائه في الصحيفة السجادية.
كيف يحافظ المحب على نقاء قلبه رغم الأذى.

الفصل الخامس: الحب للخلق كافة..... ٩١

رحمة النبي (ص) حتى بالمنافقين والمشركين.
سيرة الإمام علي عليه السلام مع اليتيم والأسير.
إطعام الطعام حتى لمن يعاديك (آية: ويطعمون الطعام...).

الفصل السادس: أمراض الحب الزائف..... ١١٤

الحب المصلحي في زمن الأئمة وكيف حذروا منه.
التعلق بالأشخاص دون فهم المبادئ.
الفرق بين الحب لله والحب للهوى.



محتوى الكتاب

الفصل السابع: تربية القلب على الحب..... ١٣٦
وصايا الإمام الصادق عليه السلام في تهذيب النفس.
الأذكار والأدعية التي تفتح القلب (مثل دعاء مكارم الأخلاق).
خدمة الآخرين كأعلى مراتب الحب.

الخاتمة..... ١٦٨
استعادة سؤال الإمام الصادق: «وهل الدين إلا الحب».
الحب كقوة نهضة فردية واجتماعية في فكر أهل البيت.
دعوة لتطبيق الحب منهج حياة.

خاتمة الكتاب..... ١٨٤
نظرة عامة..... ١٨٨



